طاووس الظلام

بقلم

أميمة خفاجي

ريشة : سمر عدلي

مقدمة

إنى أرحب كل الترحيب بمولدنا لأدباء الشبان وأشجع هذه البدايات التى تدل على استعداد أكيد للتقدم والانطلاق . . وأعتقد أن جو الحرية . . هو الذى سيؤدى فى المستقبل إلى ظهور عمالقة فى الآدب والقصة . . فالحرية هى الجو الوحيد لولادة العمالقة .. أتمنى لأميمة التوفيق . . والحرية . . . !

مصطفى أمين

تقديم

لست أديبه . . ولا كاتبة .. ولكنني فتاة .. فتاة لم تؤمن بالحب .. ولم ترضى به طريقاً لحياتها .. فاذا بها تستجيب لندائه العذب .. معصوبة العينين .. أصمة الاذنين .. مسلوبة الإرادة .. تائهة الفكر.. شاردة الذهن .. ولم تستطيع المخاوف والهواجس التى عشت فيها أياماً وشهوراً أن تنفض تلك المشاعر الخفية التى تجتاحنى .. وليته كان باستطاعتى .. ما عشت لحظة واحده من تلك اللحظات القاسية . . ولكنه القدر . . قدر أحمق معتوه أسمه الحب . . قدر لا يأبى الظروف ولا يخشى المجتمع . . قدر رهيب يحطم بقوته أغلال العقل وقيود الأخلاق .. خصم لعين لا يهمه غير إثبات خطأ كل منا .. فى معتقداته .. وفى تصوراته وأحلامه .. قدر جعل قلبي ينبض باسم رجل . . رجل ما من هؤلاء الوحوش الذين يسكنون غابة الحياه . . رجل يتخذ من الحب ستاراً وقناعاً لزيف مشاعره .. وليتنى ما أحببت رجلا يوما ما وأحببت جمادا لا يشعر .. عله يرحم . !

بقلم : أميمه خفاجى

إهداء

إلى رامى . . . !

إلى من كان وحياتى شيئاً واحداً .

إلى من انتهت حياته من هذه الأرض التى نعيش عليها ولكن ذكراه لا تزال حية كامنة فى أعماق حياتى .

لا أكاد أذكر شيئاً من حياتى حتى يتراءى لى وجهه الحنون الجميل .. فهو أبداً وراء أمالى وآلامى .. ووراء حبى الكبير الذى ما زلت أحمله له .. أسعدنى فوق ما أطمع .. وأحيانى فوق ما أتخيل .. أنه حياتى كلها .

فلأعترف إنى أكتب لأذكره هو .. ولأستعيد حياته هو .

إليك .. أنت .. أنت يا رامى .. !

الجزء الأول

(١)

صبح جديد . . يوم جديد . : وعذاب أيضاً جديد . . . !

وأنا . . أنا لست بشيء من جديد . وبينما أجلس ساهمة ، شاردة ، تائهة فى ساحة غرفتى ، أحلق فى لا شيء سابحة .

أشعر بأنى بجمدة إذا كان الجماد لا يتحرك ، بل وأشعر بأنى مخدره إذا كان من الممكن أن يشعر الإنسان بأنه مخدر . !

وكيف . . ؟ كيف وصلت بى الايام إلى هـذا الحد . . ؟ وكيف فعلت ن الحياة كل هذه الأشياء . . ؟ إن الحياة تسير فى طريقها ، وعلينا أن نسير معها، فهل هناك فائدة ترجى فى المضى فى رثاء أنفسنا ؟ وفى التعلق بأذيال ماض عشنا فيه ولم يعد موجوداً معنا الآن ؟ الماضى دائما يمضى . . وماضى أنا لا يريد أن يمضى . . ماضى أنا سيخلد مدى الحياة . . سأعيش من أجل ذكرياتى ، وإن كانت مؤلمة سأحيا لها ومن أجلها ، الذكريات التى مضت وكادت تأخذنى معها.

لقد كانت حياتى الماضية ، وأظنها القادمة ، حياة جافة . . قاسية خالية من كل شيء . . حتى السراب الكاذب لم أجده . . كل شيء فى قد تجمد ومات ، ولم أجد سوى دموعى .. فدموعى وحدها هى التى تدل على إنى حيه .. على أن السحاب فى حياتى قد تحرك وأسقط مطراً .. ولكن حياتى الجافة لم تلن تحت كل هذه الدموع .. !

أعود إلى تلك السنة التى أختلطت فيها المعالم أمام عيناى .. حتى حجبت عنى الرؤيا .. وأستغلق على فهم ما يدور حولى من أحداث .

من العسير أن أحدد اليوم أو اللحظة التى بدأت فيها الأقنعة تسقط وتتحطم لتظهر الحقائق المزيفة .

كم هزتنى من الأعماق تلك الأحداث المريرة ، الفاجعة ، التى حدثت لشقيقاتى الأربعة .. والتى ساعدت على تكوين شخصيتى . . الأحداث التى لم تكن سوى نتيجة الخداع .. أجل الخداع بما تشمل وتحتوى هذه الكلمة من معانى..!

نرجس الشقيقة الكبرى .. التى حكم عليها الزمن أن تكون لنا مثل الأم بعد موت والدتى ، منذمولدها ولم تعارض الوالد فى أمر ما .. تزوجت مدحت المهندس المحترم .. الذى تتمناه كل فتاة .. وكثيراً ماكانا يتشاجران إلا أن نرجس العاقلة يجب أن تتحمل .. وأن تروض زوجها .. فهى أم لطفلين .. وليس من حقها أن تفكر فى الطلاق.. ولم تجد مفر من أن تعيش وترضى بالواقع ودائما ما تخفى نرجس عيونها عن الآخرين .. وتهرب من الحوار الذى يلامس حياتها .. لا تريد أن تعلن عن تعاستها لأحد .. وعلى الرغم من صمودها ، إلا أن هناك على جسد نرجس بصمات لا يستطيع الزمن أن يمحوها ولا يستطيع والدى أن ينكرها .. بصمات لا تطويها سوى دموعها السائلة على هذا الوجه الجميل .. دموع تبحث فى آنات الليل عن مأوى .. فلا تجد سوى الوسادة مأوى لها .. نبضات لا يسمعها أحد .. إلا من أقترب من فراشها . !

هذا اليوم لم يفارق مخيلتى أبداً .. حين جاءت نرجس هى وصغارها . . تحمل حقيبة ملابسها .. بوجه شاحب .. بنظرة حزينة .. وما أن فتحت جيهان الباب إلا وأسرعت نرجس نحو غرفة والدى تبحث عنه . . وقبل أن يسألها أجابت دموعها الحزينة .. وانهارت بين ذراعيه بالبكاء . . ولكن ماذا تفعل الدموع فى قلب رجل قاس لا يعرف قلبه الرحمة . . دائما متربص لنا ..

أجل . . فهو أباً لخمسة فتيات . . فلابد أن يكون دائم النظر إلينا . . دائم اليقظة لما يدور بنا بعدما يفعله بأحكامه وحماقته البلهاء .

صمت كل من فى البيت ، بعد أن عرف رغبة نرجس فى الطلاق . وعلى الرغم من أقتناع والدى بأن ما تطلبه نرجس من حقها بعد ما أتضح أمر زوجها من الخيانة . إلا أنه رفض مطلقاً هذه الرغبة المدمره . . وبدلا من أن يواسيها أخذ يعتب عليها . . مبرراً ما يقوله . .

ــ إن كل رجل فى هذه الحياه معرضاً للخيانة . . ولكن الزوجة هى التى تعطى الزوج تلك الفرصة . . فهى المسئولة عن الخيانة . . !

بكت نرجس بكاء شديداً . . وأرتفع عويلها يملأ أصداء البيت وهى تقول . !

ــ أقول لك . . فى غرفة نومى . . وعلى فراشى . . ألا تفهم ما أقوله . . ! على فراشى !

وكان هذا الخبر أشد غرابة مما توقعه كل منا . . ما الذى يدفع رجل فى اتزان وعقلية مدحت إلى اقتراف هذا الفعل الآثم . . ؟ ألا يخشى مركزه وسمعته . ؟ ما ينقصه ليبحث عن امرأة من تلك النساء العاهرات ؟ وتحت اسم المجتمع وما يقوله . وما يطلق على المرأة المطلقة من مسميات . . وتحت ضغط الوالد وتصميمه على عودتها للبيت . . عادت نرجس شاحبة الوجه ، وما إن دخلت غرفة نومها . . إلا وأصابها شلل . . !

* * *

عندما يفقد الإنسان توازنه . . . وتختل قواه العقلية . . لابد وأن يفقد وسيلة الدفاع عن نفسه . . وكان تقرير الطبيب أن هناك صدمة شديده أصابتها بهذا الشلل . . وهذا الشلل ما هو إلا تعبيراً لا شعوريا من أعماق نرجس بنفورها من هذه الغرفة الملوثة . . ولم يستجيب لهذه الرغبة إلا جسدها محققاً ما تتطلع إليه في صمت . !

وبالطبع أصدرت الاوامر على جميع أفراد العائلة المحترمة انكار سبب هذا المرض وإلا أصبحنا محلا للقيل والقال . . وبالتالى أصبح هذا السر حبيس الفتيات الاربعة . . وعاشت نرجس ضحية للخداع . . فريسة للمرض . . طريحة على الفراش !. . وظل هذا السر الحبيس فى أعماقى يؤلمنى أشد الآيلام . . لولا ماحدث لنرجس ما صدقت أقوالها . . كم مثل دوره فى براعة وإتقان حتى خدعنا جميعاً بمظهره . . ومن أجل المجتمع والعادات والتقاليد والقوانين والمبادىء التى فرضت علينا دون أن ندرى كان لابد أن ترضخ نرجس للامر مستاءه . . من أجل قائمة الممنوعات ولوائح المحذورات التى لا تطبق إلا على المرأة وحدها . . كان لابد أن تتحمل نرجس هذه المعاناه . . إلى أن تلزمها الفراش ، من أجل المباح الرجل فى كل وقت وفى أى ظروف . . متزوج كان أم أعزب . فهو لديه القدوه البارعة على الخداع والتمثيل . . والمجتمع يؤيده . . ويمنحه هذا الحق الذى لا يحق له . . المجتمع الذى لا يطلق على مدحت واقترافه هذا الفعل أنه رجل غير شريف . . لأنه رجل . . أما إن كانت نرجس هى الاثمة لرجها الناس وقذفها بأقبح الصفات . . مدحت الرجل الفاسق شريف . . لأن زوجته لا تخونه مع رجل آخر . فما أقبح هذا المجتمع . . وأقبح مفهومه عن الشرف لقد أرتبط الشرف فى المجتمع بالحفاظ على الأعضاء الجنسية ، وأرتبط بالمرأة فقط . . والغريب

أن شرف الرجال لم يكن يتعلق بسلوكهم هم وإنما يتعلق بسلوك زوجاتهم أو بناتهم أو أمهاتهم ..! مفهوم تافه ومضحك للشرف . يهبط بمستوى الشرف إلى منطقة سفلية فى جسد المرأة لاتزيد عن غشاء البكارة فإذا كان هذا هو الدليل على شرف المرأة قبل الزواج .. إذن فهى تصبح غير شريفة بعد الزواج لأنه قد فقد ما يثبت شرفها ..!

مفهوم يقصر الشرف أو الفضيلة على عضو من أعضاء جسم الإنسان وليس هو أهم أعضاء جسم الانسان .. ولو تعمقنا قليلا لأدركنا أن أهم عضو فى جسد الانسان هو مخه ، عقله ، .. وأن أهم نشاط فى حياة الانسان هو النشاط العقلى والفكرى .. بل هو النشاط الوحيد الذى يميز الانسان عن سائر الحيوانات الأخرى .. ولا شك أن ارتباط الشرف بالنشاط الجنسى فقط يجعل الانسان يتصور انه شريف طالما هو يحافظ على اعضائه الجنسية ولا يمارس الجنس إلا حسب القانون .. أما الزنا الفكرى والدعارة العقلية فهذه أشياء لا علاقة لها بالشرف . لماذا لا يرتفع الشرف إلى درجة أخلاقية تتعلق برأس الانسان .. لا بنصفه الأسفل ؟ لا بد أن يكون كل فرد (رجلا أو امرأة) مسئولا عن سلوكه وعن أفكاره أمام الآخرين .

لماذا ؟ لماذا لا يكون للانسان حياة واحدة .. هى حياته العلنية ؟ وهذا هو الأساس الوحيد للشرف والصدق . ولكن المجتمع جعل لكل انسان حياتين : حياة يدعى فيها الشرف .. وحياة سرية يمارس فيها جميع نزواته ..!

المجتمع .. المجتمع .. المجتمع .. كم تضايقنى هذه الكلمة كثيراً وتخملنى بعداوة ليست من طبعى فى شىء .. أليس أنه لا يصح أن يكون المجتمع خاطئاً ولو مرة واحدة .. المجتمع الذى يؤثر الدعارة على الابتسامة الطاهرة الشريفة .

ويوم أثر يوم أصبح ذلك الشيء الذي لا أستطيع حتى الآن أن أمسك به في يدي الحقيقة الوحيدة التي تملأ كل حياتي تملؤها بالمرارة والأسى وتملؤني بالعجز .. العجز عن التعامل مع هـــذه الحقيقة كما يمكن أن يتعامل الناس مع حقائق حياتهم لأن هذه الحقيقة التي تثقل قلبي بالآلام لا تزال تفلت من أصابعي كالشعاع .. ! ويخط القـدر في صفحـات الأيام أن تعيش نرجس الحرمان .. صريعة للتضحية والايثار ضحية رجل حقير .. عاهر .. ألا يصح ان نطلق عليه لفظ عاهر كما توجد امرأة عاهره .. ؟لماذا أيها المجتمع السخيف ؟ لماذا المرأه هي ضحية في كلتا الحالتين خائنة أو مخونة .. ؟

وترك مرض نرجس شللا في قلبي كما ترك بصماته على جسدها .. !

* * *

(٣)

أما سميرة فـكان اللقاء بينها وبين عادل في بيت نرجس .. يومها .. بهرته جذبته خلبت لبه .. فهي صارخة الجمال .. فاتنة الأنوثة .. ولـكنه فوجيء بأنها مخطوبة لقريب لها .. أبداً لم ييأس عادل ربما لأنه شعر هو الآخر أنه قد آثار أنتباهها لا .. لم يكن وهماً .. فقد تحابا .. سميرة وعادل ، كانوا رمزاً للمرح والحياة المنطلقة الخالية من كل صعاب . فسميرة متميزة بواقعيـة تتخللها رومانسية شديدة ، تردد والدي بالفعل .. ولـكن شخصية عادل وقوة مركزه بجانب موقف سميرة الصامد .. حسم الأمر وحملت على عاتقها مسئولية مصارحة خطيبها بالحقيقة .. وتزوجا .. كان عادل عند وعده .. عام وهو يبذل

قصارى جهدة من الحب والرعاية لتحقيق سعادتها.. ولكن هناك ما تضطرب له سميرة بعد أن تعددت زيارتها على الأطباء. ذات يوم جاءت لزيارتنا بمفردها.. ولم تتعود قط على رؤيتها بدون عادل. وحين أجابت على السؤال عنه.لاحظت كل منا توترها.. شرودها.. قطعاً لم تكن هذه هى البداية. قصتها مع القلق بدأت بدون شك قبل أن تنتبه أحدانا.

وما أن أعترفت إلا وصفعها والدى بيديه على وجهها. كيف تتخذ هـذا القرار الحاسم بمفردها ودون علمه.؟ أصابع الاتهام كلها أشارت نحوها تدينها. الحكم رهيب، سميرة خائنة، كما تركت خطيبها من أجل عادل، تركت عادل من أجل رجل ما، أمرأة غادرة، طعنت الرجل الذى أحبها، خدعته لاذت بآخر، وتركته وحده، ما أعنفها من طعنات توجه لامرأة واقعية.. أجل واقعية، فكيف تعيش بدون أطفال، وعلى الرغم من أنها لم تكن هى صاحبة فكرة الطلاق إلا انها كانت تتطلع إليها بشغف، فبرغم حبها الكبير له، فقد أفقدتها المفاجأة توازنها، أظهرت العطف، وكانت فى قمة الاضطراب حاولت، وباطلا حاولت أن ترضى بحكم القدر، قالت أنها لن تتخلى عنه، وانها قادرة على احتمال الحرمان.. وربما كان ذلك أروع ما يمكن أن تقوله أمرأة فى مثل هـذا الموقف، ولكن السعادة أصبحت فى حياتها مجرد مظاهر، أما الحقائق فكانت مروعة، أصبحا غريبين كل همها التظاهر بأن لا غربة بينهما وعانت، اياماً وشهوراً وهى تعانى.. ولكن ابداً لماذا لا تكون واقعية؟ نظرت إلى المسألة نظرة واقعية وقالت، لقد كان استمرارنا معاً يعنى معاناة من المؤكد إنها ستستنزف بقايا الحب فى قلبينا.. وإنى ليفزعنى ان نعيش معاً على الكراهية.. ولقد انتصرنا من قبل للحب، وبمنتهى الصراحة لست قادرة

على معاناة الحرمان . . ! فالأمومة في أعماق تصرخ وتثور أتمنى أن أكون أم . . !
أليس من حقي أن أتطلع إلى هذا الأمل . . ؟ كانت الثقة التي تتحدث بها أشبه بالغرور ولكنها على كل حال تنظر للأمور نظرة عقلية بحته . واقعية . ! . .
وأتساءل في صمت . . أتلك هي نهاية الحب الكبير . . ؟عجيب شأن هذا الحب . !

وتأتي هدى . . ! ذات الوجه العابس دائما . . جادة . يطلقون عليها اسم الأستاذ هدى لما لها من خشونة . . أما جيهان فكانت رقيقة كالفراشة جذابة، هادئة ، ذات صوت خفيض . . شاعرية الحس ، تنادي بالتضحية تؤمن بالحب وتدافع عنه . تؤيده وتعزز دعواه . . رفضت أن تتزوج بدون حب وما إن نصب الحب شباكه حولها إلا ووجدت قلبها بين يدي رجلا لن تتزوجه أبداً . .
أجل . . محال أن تتزوجه . . من الممكن أن يضحي الإنسان بكل شيء في سبيل الحب . . بالأهل . بالأصدقا . . بالعمل وربما بالمبادىء والمعتقدات التي تنهار وتتحطم أمام الحب أما أن يضحي الإنسان بديانته من أجل الحب . . فهذا ما لا أتوقعه أبداً . . مستحيل أن يكون الحب بهذا الجبروت الساحق القاتل . . !

أجل هي أحبته . . أحبته حب فوق ما يتخيله بشراً ما . . ولكنه القدر . . قدراً أحمق معتوه . . سخيف . . لماذا أحبته دون الآخرين ؟ وتوقفت . . بعد ما علم الوالد بكل شيء . . حكم عليها بالحبس وعدم الخروج من البيت . . توقفت . . ولكن قلبها مازال ينبض به . . دائما شاردة . . تائهه . . لا تأكل ولا تشرب . . أتطلع إليها في اندهاش أيمكن أن يفعل الحب بالإنسان كل هذا . . ؟ تغيرت قسمات وجهها تبدلت أحوالها . . لم تجد أي رغبة في الحياة . . وحين أصر الوالد على زواجها . . لم تمانع وقالت أليس أنه رجل ككل الرجال رضخت للأمر مستاءة . . وقبلت على مضض . . أنهارت . . ولكن ماذا

تفعل .. ؟ والحقيقة التى أمامنا يصعب التعامل معها .. !

ظلت عيناها تبكيان على الوسادة طوال الليل . . أسمع تنهداتها أى قدراً هذا من الحب حملته لهذا الرجل .. ! عجيب شأن هذا الحب .. ؟

تمنيت فى تلك الليالى ألا أعرفه .. ولا أحب يوما ما .. مما رأيته . !

* * *

(٤)

أما أنا . . فلم أرضى باستسلام نرجس وخضوعها للواقع .. ولم أقبل سميرة وحماقة المرأة داخلها التى تهدم البيت وتقتل الحب من أجل الانجاب . . !

كما إننى لست هدى المعقدة .. ولا جيهان الضاربة بالعقل عرض الحائط فى سبيل الحب .. ! .. فأنا .. فتاة .. فتاة طموح .. أحب الكلمة ، أحلق فى الآفاق وأجتاز الآفاق .

فتاة مرهفة اغرق وجودى فى الرسم واللوحات ، وأدفن عاطفتى فى النجاح .

تجاهلت صدمات أخواتى الأربعة وابتسمت للمجهول .. ملىء حاضرى بالنجاح وزين مستقبلى بالآمال .

أريد أن أدرس . . أن أقرأ . . أن أرسم . . أن أعمل . . أن أسافر .

أريد .. أريد . . أريد . . وكم . . كم يريد طموح السادسة عشر ، يريد أبتلاع الدنيا ومافيها ، يسبح فى خيال منطلق لا يقيده شىء .

وأحببت الناس بما يتميزون به من سخافه ، كنت صريحة .. لا أخاف شيئاً ، وأتمسك بمبادىء لا يوافقنى أحد عليها .

وأحلامى لا . . ليست كأحلام كل فتاة . . فانا لم أوجد لأتعلم الطهى ثم أتزوج فأنجب أطفالا ثم أموت، وإذا كانت هذه هى القاعدة فى بلدى فسأشذ أنا عنها .

أنا لا أريد أن أتزوج ، أنا أريد أن أعيش حياتى ، لا أن ترسم حياتى ، وأدفع الى العيش فيها .

أبداً . . مستحيل أن يلتقى مستقبلى مع رجلا يوما ما ، لا عن حب ولا عن غير حب .

فماذا فعلت نرجس بالزواج ؟

وما الذى عاد على سميرة من الحب ؟

فلم يستطع الحب أن يدمر رغبة الأمومة العارمة فيها .

مستحيل أن أتخلى عن طموحى لألتصق بجدار المطبخ وأفقد استقلالى وشخصيتى ، وارتفع اذا ارتفع ، وأنتهى حيث ينتهى .

بدأت أعلن افكارى فى جرأة وتحد ، ولكن ا واجهتنى عاصفة كبيرة منذ بدء اعلانها ، حتى أصبح الجميع يجمع على إننى فتاة غريبة الأطوار ، شاذة التفكير ، منطلقة .

وأجمعت كل عزمى على إننى لن أتخلى عن مبادىء يوما ما ، وإن كانت مبادىء ومعتقداتى خاطئه فلن أتنازل عنها . . ولا . . ان أسلم مطلقاء لمثل هذا المجتمع لا . . ولن أحنى رأسى أمامه يوما ما .

شعرت بأن جميع المنافذ قد سدت فى وجهى ، وبدأ اليأس يتسرب إلى نفسى ، فصرت أحاول خلق إناسا جديدة من عدم ، وأن أجمع كل قوتى لمجابهة الوقع والصبر عليه .



وكانت أقسى ساعات أيامى هى ساعات الليل حين ينام الجميع وأذرع أنا أرض بين جئيه وذهاباً .

ثم تحملنى قدماى إلى الشرفة . فأنظر إلى السماء ، ويسبح خيالى بين النجوم .

وأبحث .. عن شيء آخر ، شيء جديد .. شيء لاوجود له فى عالمى هذا .

لقد سئمت كل شيء ، وبالحياة تتكرر فى كل شيء الخير والشر .. فى الفضيلة والرذيلة .. وتصل دائماً إلى نتيجة واحدة .

أبحث عن الصدق ، ويجوب خيالى بين النجوم على أحد بين النجوم صديقا يعتنق أفكارى .. يفهم ما أقول ، يشاركنى عقائدى .

وكم من مرة أبتسمت حزينه للقمر ، وناجيته لأنه يسهر كل ليلة وحيداً مثلى

ودائماً أستقبل أشعة شمس كل يوم جديد بنظرة يائسة ، لعلمى أن هذا اليوم لن يكون خيرا من الذى سبقه .

ويمضى يوم أثر يوم .. وأنا سابحة فى افكارى ، أفترض المسائل والحلول وفجأة دون سابق انذار ، بدأت الكوارث تصيبنى بدون رحمة أو هوادة .

جلس والدى إلى مائدة الافطار ، بعد أن جلست سميرة وهدى وجيهان ، جلس فى هدوء يكاد يبلغ التباطؤ والتراخى وفى يده الصحف .

وقال وهو يفتح إحداها ، ناظراً الى بصوت لايشى بشيء على الاطلاق .

ــ كيف أصبحت ؟

أنقضت لحظة طويلة من الصمت قبل أن أجيبه وأنا أضع أمامه كوب القهوة الساخن ... ــ بخير .

كان فى وسعى أن أدع للخادمة كل هذه المبا و كان ذلك خلقاً أن يوفر

على نفسى عناء ذلك الموقف الشاق الذى أواجهه كل صباح .

تغيرت قسمات وجهة ، وشعرت أن هناك شيئاً ما . . فالإنسان حينما يكون على سجيته تحس بملامحه منبسطة .

أما هو فكان متوتر الملامح ، بادى التيقظ ، كأنه تعاطى منبهاً قوياً قبل جلوسه مباشرة . . ويداه كانت دائبتى الحركة فى تقطيع عليه سجائر أنتهى من تدخين ما كان فيها سيجارة تلو الأخرى ، فى مدة لاتقل عن ربع ساعة من الزمن . . والجميع أخذن يتغامزن وكأنه شيئاً ما حقاً ينتظرنى أنا بالذات .

أخذ يحاور ، ويتـكهن بجميع الأشياء التى تخطر بالبال إلا الشىء الذى أعرفه جيدا . . فقلت له مندهشة :

— ماذا وراءك ؟ وعلى رسلك حتى أفهم ؟

أخيرا فاجأنى بالخبر الذى لم يحرك ساكناً فى أعماقى لانى فى الحقيقة كنت أتوقعه ، وأنتظره .

* * *

(٥)

وعندما تأتى الريح بما لا تشتهى السفن .

فلقد كان أهتمامه بشريف أهتماماً فيه كثير من المغالاة ، ولـكن أبدا لم أتوقع أن شريف قد وقع إختياره على انا .

نعم تنبأت أن هناك شخصاً ما سيحدثنى عنه ، أما شريف فهذا لم أتوقعه مطلقاً .

شريف شاب ذو خلق كريم ، وسيم ، له مستقبل كبير ولكنى لا أستسيغه .

تسمرت الإبتسامه على وجهى .. وكان هذا شأنى كلما أعتصر الألم قلبى ألجأ إلى الإبتسام المفتعل إلى ان ينجلى الموقف الأليم ، واحسست به ورائى فرفعت عينى وتطلعت اليه وانا ابدو ساهمة ثم قلت :

ــ انك بلاشك لاتجهل رأيى فى مثل هذا الموضوع ..!

ــ ماذا به عيوب .؟

ــ ليس به اى عيب ، ولكننى لا اريده .

نهض من فوق مقعده ، وعلت ضحكته الصاخبة .. تنتهى برنة ساخرة فيها إستبداد وقسوة ، كم أنا اكره هذه الضحكه وهى تصدر عن إنسان لا يعرف الرحمة ، بقدر ما أعشق ضحكة تمثلها أصداؤها العالية لكنها لاتشاركها الرنة الساخرة ... وقال فى شدة وحنق :

ــ إنك مازلت صغيرة ، وتؤمنين بآرائك الخاطئة ، وتعتقدين أن منطقك المعوج هو قانون الحياة ، نعم الناس كلهم سخفاء وأنت وحدك الذكيه يالك من مغرورة ، تطلعين كل يوم ببدعة جديدة ، وتعتقدين أن من واجبنا نحن نوافق ، إن طريقة حياتك تزعجنى كثيرا ، لقد منحته الموافقه ... وسوف تنفذين رغبتى ، شئت أم لم تشيئى .

وتركنى .. تركنى بعد ماترك حولى جواً مليئاً بالصخب والعاصفة :

وتعددت زيارات شريف لنا ، حاولت أن أرسم الإبتسامة على شفتى فلم أفلح ، دائماً يشعرنى بأنه فى حاجة الى وكنت أنا فى حاجة ماسة إلى إنسان .

ورغم ذلك لم أتعلق به ، وشعرت بأن أمالى قد خابت فى هذه المرحلة لوجود إختلاف كبير فى طباعنا وعاداتنا .

وبدأت أشعر بأن زواجى من شريف سوف يرمينى فى بئر من الحرمان أسوأ من التى أود الخروج منها .

وحاولت بجميع الطرق أن أقنع والدى كى يتنازل عن رأية ، غضبت .. ثرت .. حزنت .. مرضت ، ولم يرضخ للأمر أبداً .

ظل عازماً على تحقيق مانوى ، ولم أقبل الخطبة ولكنها تمت ، رغماعنى .

وحاولت جيهان وسميرة أن يخففوا ماحل بى زاعمين ان بعد الخطبه من السهل أن اتركه فقليلا من المطالب السخيفه على بضعه من المشاجرات كفيلة بأن تحقق ما أتمناه .

قبلت على مضض ، واخذت أخطط وأدبر لاشن مشاجرة بأى شكل من الأشكال ، ولكنه لم يمنحنى أى فرصة لذلك .

لقد كان مهذبا لأبعد الحدود ، ورقيقا للغاية .. ومحب فوق مايتخيله العقل .. ورغم كل ذلك لم أقتنع به .. !

وذات مساء ، كنت أستذكر دروسى وقد خلا البيت إلا منى ، وفجأة ، دق رنين الهاتف .

أنتظرت أن تلبى الخادمة الرنين .. لكن المنزل كان هادئا أسرعت ، وما إن وضعت السماع على أذنى حتى سمعت صوتا يقول فى لهفة :

— أشجان .. ؟

— نعم أنا أشجان .. من المتحدث .. ؟

— ألا تعرفينى .. ؟

— كلا .. من أنت ؟

— كيف لم تعرفينى حتى الآن .. ؟

تضايقت وصحت للمرة الثانية :

ــ من أنت . . ؟ وماذا تريد ؟

ــ شريف . !

ــ . . . . . . !

ــ أشجان أريد أن أراك .

ــ نعم ! تراني ، أنا أستذكر دورس ولم يوجد لدى وقت .

ــ ولكني . . !

قاطعته :

ولكنك أحمق . . تريدني بجانبك طوال الوقت ، أصغ لى ياشريف جيداً فأنا لم يعد لدى وقت لأضيعه معك فى أحاديث تافهه .

قال بغضب :

ــ أشجان . . ! أأحاديثي تافهه . . ؟

قلت بإصرار :

ــ نعم تافهة . . وانا بمنتهى الصراحة . . أصابني ملل . . ولم أعد بقادرة على تحملك . . لم يمض أكثر من شهرين وانت لاتتحدث سوى عن الشقة والغساله والثلاجة ، أرهقتني بتلك الأقوال السخيفه ، أنا ليس بوسعى أن أحصر عقلى وتفكيرى ضمن حدود غسالة وبوتاجاز ، ثم لم يأت الوقت الذى يكون فيه لديك حق الحديث عن هذه الأشياء .

ــ أشجان ماذا بك ؟ هل حدث منى مايغضك ؟ لما كل هذا التحول ؟

ــ لا شيء حدث ، ولكننى لا أحبك . . وبصراحة لست بقادرة على الاستمرار فى تمثيل هذه المسرحية السخيفه .. وأنت دائما لاتفهم ولا تريد أن

تفهم ، أنت عندما أحببتني ذهبت لو الدى ومنحك الموافقه دون وضعى فى الاعتبار ، وطبعاً هذا هو مايرضيك ولكن لا .

أنتاب شريف حزن دفين لدى سماعة هذه الكلمات ، والغريب ان هذا الكائن لم يتخذ موقف محسب . . بل عاد يحاصرنى بالكلمات . . بالهدايا .

حضر ، وجلست بدون اكتراث ولم أعن نفسى بتوجيه الحديث إليه ، وتعللت بصداع كى لا أخرج معه . . وحينما أنصرف أنفردت سميرة بى وكأن الخجل من تصرفى قد بلغ غايته ، سألتنى بلهجة لم أعتدها :

— ماذا دهاك ياأشجان ؟ كيف تعاملين خطيبك بهذه الطريقة الفظة ؟ هل صدر منه شىء ؟

أجبتها بهدوء :

— كلا . . لم يصدر منه شىء .

— إذن مامعنى تصرفاتك هذه ألاتخجلين من نفسك ؟

— أرهقت كثيرا . . حاولت ان أستسيغه . . ولكنى لم أستطع، ولن أتزوجه .

وقبل نهاية حديثى دخل والدى ، ويبدو عليه أنة سمع ماقلت . . . فقال رابطا بيده على كتفى :

— أى مصيبة هذه ؟ ماذا فعل شريف ؟ أيمكن أن ترفضينه دون سبب ! ماالذى ارتكبه . ؟

— لم يرتكب أى شىء . . ! المسألة . إننى لا أشعر نحوه بأى ميل . ! فاطمنى قائلا :

— ميل ؟! وهل يأتى الميل إلا بعد الزواج ، ماذا حدث لعقلك؟ ياإلهى . .

هل هذه نتيجة تربيتى . . لاتسميه ميلا .. فقولى إنك تريدين أن يترك لك الزمام . . لتقترفى ما أقترفته أختك من قبل . . أصغى الى . . إن تركت شريف لست ابنتى ولن اعرفك .

وخرج من عرفتنى يلعن فى انجابه إيانا . . . ، أى جرم ارتكبته . . ؟ ماذا فعلت فى حياتى لأجنى فى بناتى هذه الأفعال . . ؟

وماذا أفعل أنا ؟ بعد ماقاله وماأكثر واعنف ماقاله ،

تمنيت ان أموت قبل أن أزف إلى شريف .

وذات يوم . . كنت مع صديقة لى امام باب الكلية ، وإذا بنا نفاجأن بضياء يقطع علينا الطريق بسيارته فى حركة عنيفه أحدثت دوياً كالفرقعة ، فجمدتنا فى مكاننا مذهولتين ، فإذا به ينزل أمامنا من السيارة وينحنى أمامى لامس فيها رأسه ركبتى ، وقال بطريقة تمثيليه يخاطبنى وأنا مشدوهه لجرأته المذهلة :

ـ آسف يا آنسه لازعاجك .

قاطعته وأجبته على الفور :

ـ إذا لم تكن تدرى من فنون قيادة السيارات إلا هذا القدر ، فالأجدر بك أن تبيع هذه السيارة وتمشى كبقية الخلق على قدميك ، وإلا كانت آخرتك بين جدران السجون .

لم يغضب بل قال بتزلف :

ـ عفوك يا آنسه ، أرجو أن يكون لك من سعة الصدر مايمكنك من الاستماع الى لقد جئت من أجل منى .

أنتظرت على مضض إلى نهاية الحديث الذى أسمعه وعلى حين فجأة ودون أن أتفوه بكلمة ، سحبت صديقتى من يدها ، وتركته واقفاً كمن أقترف فعلة شنعاء .

ومشينا إلى محطة الأتوبيس ، صدمته حركتى فوقف مذهولا للحظة ، ثم لم يلبث أن ركب سيارته وداس البنزين وبين شفتيه سيجارته التى لاتفارقه ، وأخترق الشارع كالسهم ، وغاب عن الأنظار .

أما منى صديقتى فقد التفتت إلى مستهولة ماحدث منى فى حق هذا الشاب وقالت :

ـــ ما هذا الذى فعلت يا أشجان ؟ ماالذى جناه ضياء ؟

أجبتها بتحد ظاهر :

ـــ لاعليك . . أنت لاتعرفينه . . فهو بما عرف عن أخلاقه يلقى عليك ظلالا من الشك حينما يراكما الناس دائما معاً ، ثم إنى لا أرض لك أن توصمى بما يوصم به هـذا الشاب ، ولا أدرى ما الذى يجعلك تصاحبين مثل هذا الماجن ؟ أخلت الـكلية من الزملاء الشرفاء لتصطفى هذا العابث ؟

ـــ أشجان ، إنه انسان لطيف ، لو عرفتيه لا ستلطفتيه حقاً . . فهو يحب الدعابة البريئة ، ولا يبغى من وراء عبثه سوى الضحك والهذر ، تستهويه الحياة فينهل من مباهجها ، ولا ينطوى على سوء .

ـــ وهل سيفعل أمامك شيء يسقطه من عينيك ؟ ان مظهره غيرما يبطن وأشد ما اكره . هو النفاق ، والجميع يعرفون أنه ماجن ، مستهتر .

ـــ كل الذى أريد فهمه هو ما الذى فعله لتتحاملى عليه كل هـذا التحامل القاسى :

ـــ قلت لك لاعليك . . كان يجب أن القى عليه هذا الدرس ليعلم أى فتاة من الفتيات أنا ، ولا يعتبر الحياة هزلا ، ولا كل الفتيات سواء بل هناك فروق كبيرة بين أو لئك اللاتى يعرفهن . . وبينى أنا . . !

* * *

(٦)

كان الوقت مساء .

أعتدت فى مثل هذا الوقت أن أرسم ، وقبل أن تمسك أنا ملى بالفرشاة ، تذكرت هذا الشاب الماجن . . وما أدرى عنه الإ همسات تدور بين الطلبة والطالبات .

إنه شاب مستهتر . . زير نساء . . لايقيم وزناً للأخلاق . . يستبيح لنفسه كل موبقه . . فى سبيل الوصول إلى أغراضه . .

فجأة دق رنين الهاتف ، أنتظرت أن تلبى الخادمه الرنين لكن المنزل كان هادئاً ، وما إن وضعت المسماع على أذنى حتى سمعت صوتاً غريباً لم آلفه ، صوت يقول فى لهفة :

ـــ أشجان . . ؟

ـــ نعم أنا أشجان . . من المتحدث ؟

أجاب الصوت ببعض الهدوء :

ـــ الا تعرفينى . . ؟

ـــ كلا ، من أنت ؟

ـــ مستحيل أن تعرفى صوتى ، واكون متفائلا جداً إذا أعتقدت إنك تميزين صوتى عبر أسلاك الهاتف ، فهذة هى المرة الأولى التى أخابرك فيها .

أعتراني ضيق شديد:

— من أنت ؟

— اذا علمت من أنا . . لا تغلقين الهاتف فى و جهى ؟

— يبدو إنك من هؤلاء الناس الذين يلهو ن بسخفهم على الناس .

— اشجان ، أنتظرى .

— من أنت . . ؟

حاولت ان أتعرف على الصوت ، جعلت أخمن دون أن أصل إلى نتيجة ، وتسلط على حب الاستلاع لمعرفة كنه المتحدث . . فقلت :

— قل من أنت ولن أضع السماع .

— أشجان أريد أن أراك .

ضحكت ضحكة صاخبة وقلت :

— ترانى .. من أنت ؟

— هل إذا عرفت من أنا تلبين طلبى ؟

قلت بسخرية :

— هذا يتوقف على من تكون . . !

قال بحرارة :

— أنا شخص يحبك ، ألا يكفى هذا دليلا كى تتنازلى لرؤيتى ؟ أشجان لا تضعى السماع .

— سأضعه فوراً إن لم تقل من أنت ؟

ــ ضياء . . أنا ضياء .

رددت :

ــ ضياء ، ضياء ، ضياء من ؟

وقبل أن يجيب أجابت ذاكرتى ، كان هذا آخر ما أتوقعه ، ضياء هذا الماجن العابث ، وشلت المفاجأة لسانى كما شلت يداى عن اعادة المسماع إلى مكانه الصحيح . . صمت كل ما فى تماماً وصوته ظل يأتينى عبر أسلاك الهاتف . . قال أشياء كثيرة . . وتنبهت على قوله :

ــ وشريف .

قاطعته :

ــ ماذا ؟ هل تعرف شريف أيضا ؟

ــ إنى أتتبع حركاتك وسيرك . . منذ أن وقع نظرى عليك وطالما تحينت الفرص لاعبر لك عن صدق حبى ، وكان الحائل الوحيد الذى يمنعنى من ذلك هو شريف ، أما الآن . . وبعد أن عرفت إنك لا تحبينه .

قاطعته :

ــ أتتكلم عن الحب أنت يامن لا تعرف كيف تحب ؟

قال بتزلف :

ــ لا أظنك صغيرة العقل كى تصدقين أقوال بلهاء تقال عنى ، فلأنى كثير الضحك . . مرح . . منطلق يظنون إنى عابث ماجن . . ولكننى مظلوم . . وحق السماء مظلوم يا أشجان . !

لم أجب عليه . . فقال :

— أشجان أريد أن أراك لنفكر سويا فى موضوع شريف ؟

— وما شأنك أنت فى هذا الموضوع ؟

— أنا يهمنى أمرك كثيرا ، أرجوك يا أشجان ، أمنحنى الحق فى أن أدافع عن الاتهامات التى الحقت بى . . أنا لا يهمنى أى إنسان سواك أنت . !

— أرجوك أنت أتركنى وشأنى . . وكفى ما سمعته .

— ماذا دهاك . . ؟ أنتظرى حتى أنتهى من حديثى ، هل أنا من الغباء بحيث أضعك فى مصاف الآخريات ؟ أنت ملاك طاهر ، وربى على ما أقول شهيد وهل لو كنت مثلهن كنت أجشم نفسى بخاطبك ؟ هناك الكثيرات ممن يتهافتن على معرفتى وأظنك تعلمين ذلك جيداً . . ولكنى أحبك أنت .

كانت نبرات صوته كلها حرارة وعنف ، أجبته بعد أن أحسست بنشوة خفية غالبتها بجهد ، وقلت :

— هل جننت . . ؟ ماذا تطلب منى ؟ أنا لا يمكن .

قاطعنى مستعطفاً :

— لا يمكن ماذا ؟ هل فيما أطلبه منك ما يعاب ؟ أعلم ما تعتقدينه فى . . ولكننى برىء . . وسوف ترين يا أشجان إننى مظلوم .

— كلا . . كلا لا يمكننى أن أقترف مثل هذا العمل . . لا تحاول الحديث فى هذا الموضوع مرة أخرى .

قال بصوت ضمنه مشاعر الأسى والحزن

— أجل يا شجان ، كما تريدين . . فأنا لا أرغب إلا فى سعادتك . . وطالما يسبب طلبى هذا قلقاً لك ، فأنا متنازل عنه . وكفانى أن أراك سعيدة ، فيخفف ذلك من وطأة حرمانى منك . . !

وبمجرد أن وضعت المسماع لفتنى دوامه من الأفكار المتضاربة . . تارة ألوم نفسى على تمادى فى الحديث معه ، وتارة أخرى أحس بقشعريرة لكلماته .. وتارة أخرى أحقد على أستسلامى لهذره الفارغ . . وكيف تركت نفسى أستمع اليه .

وفى مساء اليوم التالى ، دق رنين الهاتف ، وأتتنى الخادمة تقول أن هناك شخصا لا يريد أن يذكر أسمه ، يريدنى فى أمر هام . . وأتانى صوته :

— أشجان كيف حالك . . ؟

— بخير ياضياء .

— اردت أن أسمع صوتك فقط .

— ماذا وراءك . . ؟ أريد أن أفهم . . !

— أشجان ، أنا حريص جداً فى كل كلمة أنطقها لك . . فإن بدر منى شىء ماله ضعى المسماع فى وجهى . . . فانا لا أود أن أخسرك ، وأعطنى فرصه كى أثبت لك نقائى . .

— أجل . .

— هل من جديد ؟

— أى جديد تقصد ؟

— شريف . . !

ـــ شريف هذا لا وجود له فى حياتى ، . وسأتركه فى الوقت المناسب .

ـــ أعلم يا أشجان . . أعلم .

سألنى من فى البيت ، من المتحدث . . ؟ كذبت ، وقلت إنه أحد الاصدقاء .

بدأت اكذب ، وعلى من ؟ على أهلى . . ومن أجل من ؟ من أجل ضياء العابث الماجن . . ؟ لماذا لم أضع المسماع فور سماعى لصوته . . ؟

وأخذ خيالى المريض يتصوره فى أوضاع شتى ، تاره هو حزين . . مستحيل أيمكن أن يكون هذ العابث المستهتر حزين ! . . وتاره أخرى ضاحك ، مرح ثم فى صورة ملاك . . ليته كان غير ما كان ، لماذا أتمنى أن يكون على خلق كريم ؟ وماشأنى بخلقه ؟ .

أصبح شيئاً عادياً أن يخابرنى ضياء فى كل مساء . . حتى أصبحت أنتظر هذه المخابرة ولو إننى لا أحمل فى طيات نفسى الإكلمات الجاملة . . لكننى أحسست ، وباطلا أحسست أن وراء هذه الكلمات قلباً ينبض ولنبضاته صدى بدأ يتجاوب مع نبضات قلبى الصغير .

وأحست سميره وجيهان يتغامزان على . . يهمسان بأن شىء ما على غير مايرام ، وتعثرت خطوط رسمى . . وارتعشت فرشاتى وأنا أتجاهل هذا القلق الذى ليس ككل قلق . . وهذا الشعور الخفى الذى يتردد فى نبضات قلبى . . لا .

أبداً . . لا يوجد شيئاً بداخلى ، ولم يسقط قناع الكبرياء . . فأنا لا . . ولن أحب رجـــلا يوماً ما ، وإن اخطأ قلبى وأحب يوما ما ، فلن يحب ضياء هذا العابث الماجن حاولت أن أنفض وأخرس دقات قلبى الاحمق ، وفجأة

أنقطعت المخابرة نهائيا . . ظللت أنتظر وأنتظر . . أسبوعان كاملان وأنا أترقب في الميعاد ذلك الرنين .

ودون سابق إنذار راحت أفكاري تدور حول ضياء . . ضاربه بشريف عرض الحائط . .

ضياء . . . أخذت أتأمله :

ماذا عساني . . ؟ أأفكر في هذا الماجن العابث . . ؟

لا . . مستحيل . . تجاهلت مشاعري . . واوصدت عليها الباب . .

وشريف يأتي ويمضي وكأن لا شيء يأتي ولا شيء يمضي .

رويداً . . رويداً بدأت أستعيد هدوءي .

* * *

(٧)

رنين الهاتف يدق . . يعلو ويعلو . . ارفع السماع يأتيني صوتاً هامساً يقول كلماته التي أفتقدتها كثيراً .

ـــ أشجان كيف أنت ؟

وتحت ضغط المفاجأة . . ثرت قائله وقد زايلني الكبرياء المعهود .

ـــ أين كنت . . ؟

ـــ كنت مريض يا أشجان .

ـــ ولما لم تخابرني طوال هذه الفترة الماضية . . ؟

ـــ أحسست إنني فضولياً، وأنا لا أستطيع أن أسبب لك ضيقاً ما . هلت برقة تخاذل .

— كيف تحملت إذن طوال هذه الفترة دون أن تخابرنى ؟
— لايعلم أحد كم أعانى !.
— عماتعانى . . ؟
— أعانى منك . . وأنت
— هل عدنا لهذا الحديث مرة أخرى . . ؟
— من أى شيء تتكونين ؟ أصخر أنت . . أجماد لايتحرك ؟
— ضياء أنا .

— أنت سيطرت على عواطفى وشعورى بطريقه خفيه ، طريقه تكمن فى قسوتك وصخرتيك ، ماذا أفعل حتى أنال رضاك ؟ أخبرينى، لم أعد قادر على الاستغناء عنك ، أنت أصبحت كل شيء فى حياتى . . أجل ياأشجان أنت أوقفت حركة حياتى تماماً . . ظننت قبلك إننى أعرفت الحب . أبداً لم يكن حباً ، بل كان سراباً . . هروباً ، أى شيء آخر دون الحب ، فالحب هو أنت ياأشجان .

وكان قلبى أضعف من أن يقاوم ، وزادة اضطرابى وصمتى هذا إحساساً بقرب وقوع الفريسه طوعاً منها لا كرها عنها .

ترددت . . ولم . . أحاول رده ، بل كانت كل الظروف ضندى ، كنت بحاجة إلى عطف ، ، إلى كتف رحيمة تنشف دموعى .

شعرت بحاجة إلى صديق أستمد من وده دواء أمسح به الجراح التى خلفها الأهل فى صدرى .

شعرت بأحد يحمينى ، ولكن نقمتى تغلبت على أملى عندما كنت على ثقه بأن ضياء يرانى فتاة . . فتاة كسائر الفتيات .



أخذت الهمسات التى قيلت عنه تتردد على مخيلتى وأنا أتجاهل .

اليوم .. اليوم سأقابله ، ترى هل ما أشعر به هو الحب . ؟

لماذا أخاف الحب ؟ ألا إننى قد أتعذب ؟

أأخاف من عذاب الحب أنا الغارقة فى عذاب الفكر والقلق والحيرة ؟

سأموت يوما دون إرادتى كما وجدت أيضاً دون إرادتى ، لماذا لا أدع هذه الفترة من الزمن تشع بالحرارة ؟ لماذا لا أؤثر وأتأثر ؟

وشعرت باحتقار .. كيف أحب شاباً عابثاً مثل ضياء ؟ ألا إنه قد تزلف بأقوال ناعمة أنسى وأتجاهل حقيقته ؟

لا .. أنا لا أحبه مستحيل أن أكون قد أحببته .. ولكنى أريد أن أقول لهذا الرجل إنى أعرف مغامراتك الكثيرة .

أعرف أن وحـــدتى غرتك ، أعرف إنك تبحث عن ضحايا جديدة .. أعرف .. أعرف وأعرف .. هذا الرجل وقح ، يعتقد أن الفتيات مواد أو بضاعة يشتريها بهمساته الكاذبة .

لماذا لا أتركه وشأنه ؟ ما الذى يمنعنى ؟

لا .. لن أدعه وشأنه .

شعرت بضرورة افهام هـــذا الرجل إنى غير تلك الفتاة التى يظن ، وكأن التحدى الذى كبر فى نفسى دفعنى إلى إحتماله والتغاضى عن تصرفه ، لأعلمه مع الأيام أن الحياة قيم يجب مراعاتها ، وأن تجارة العواطف خاسرة لا محالة .!

* * *

تحدد لقاءنا الأول .

نظرت إلى الخاتم الذى لم يستطع أن يخرس هذا النداء الصاخب .

تجاهلت عقلى ، وأنكرت خوفى ، وأخرست هذا الصوت الذى لا يفارقنى بأنه رجل كسائر الرجال ، تجاهلت كل ماسمعته عنه .

ارتديت ملابسى .

لماذا أود أن أكون جميلة .. ؟ ألا إننى أتمنى أن أكون جميـــلة فى عينيه هو فقط ؟

كلا .. مستحيل أن أكون قد أحببت، لا أنه ليس حب، بل شىء ما .. يجذبنى إليه . ! وكما يحدث للأقطاب المختلفة من تجاذب حدث التجاذب بينى وبين ضياء .

أطلقت لشعورى العنان .. وأحسست أن الطبيعة لم تكن تتحدث إلى بلسان واحد ، أو بلغة واحدة ، وإنما كانت تتحدث إلى بعبيرها الذى يملأ الأرجاء وبطيرها التى كانت تستقبل الليل بأعذب النغم وأشجاه ، وأشرقت ابتسامتى تملأ الأرجاء ، تحلق فى الآفاق ، وتسمو هناك لأقصى السماء .

وفى طريقى إلى الباب عبرت بغرفة شقيقاتى لم يستيقظا بعد من النوم ، وما خطوت خطوتين حتى فأجأتنى جيهان الماكرة كنت فى حالة لا أستطيع فيها الاستماع إلى هذرها .. جذبت حافظتى ، وهى تحملق فىّ بأعين مستديرة من أعلى إلى أسفل قائلة فى ذهول :

— ما كل هذه الأناقة والجمال ؟ إلى أين ؟

أحست جيهان بسخفها ، فأذعنت وهى لا تزال ممسكة بحافظتى وفتحت لى الباب قائلة :

— بشرط أن تقولى لى كل شيء !

جذبت منها الحافظة وجريت

ثم ماذا حدث ؟

كانت طريقته المعبرة عن حبه لى ، كاليد المدربة جيداً ، فما أن تلمس أصابعه الأوتار إلا وينبعث منها نغم عذب شجى .. تطرب له أقسى القلوب !

كل شيء فيه على عكس ما تصورته ، ازداد تعلقى به ، وبدأت أخطىء من صوابى كلما عدت من لقائه ، كيف ظننت إنه إنسان تافه .. ؟

كم هو مهذب .. رقيق .. لم يحاول جرح مشاعرى ، يحافظ على ، يهتم باهتماماتى ، ويحترم مبادىء ومعتقداتى ، رويداً .. رويداً ... ملك قلبى ولكن عقلى ظل يثور على !

ماذا أصابنى .. ؟ ياللجنون ؟

هل تدهورت إلى هاوية الحب دون أن أدرى . ؟ ماذا أصابنى ؟

بل ماذا دهانى .. ؟ أأنا أحب هذا الرجل .. ؟ هذا الرجل الذى لا يعرف كيف يحب .. ؟ أأنا أحب ضياء الذى تجرحنى أراؤه المادية ؟

يا للسخرية !

هل بدأت أحب الرجل الذى أردت أن أعاديه كى أبرهن له أن المرأة ليست ضعيفة كما يظن ، وليست بضاعة تشترى بالكلمات الزائفة ؟

شعرت بأشياء لا أجد لها تفسيراً ، يجب على أن أتخذ قراراً حالا وأكون حازمة فى رأى هذا .. هو لا يحبنى ، نعم لا يحبنى ، فاذا أذن شعوره نحوى .؟

قد أكون نغمة جديدة يضيفها إلى الحانه .. !

وقد يعتبرنى مغامرة يحشوها فى سجل مغامراته ، فأنا أعرف نظرته للنساء جيداً ، لكننى لست كسائر النساء !

وما إن أقترب نحوه ، فأرى لهفته وشوقه على ، إلا وتخرس كل الهواجس السخيفة التى يمليها على عقلى .

دق رنين الهاتف ، جريت نحوه ، امسكت المسماع .. قلت :

— ضياء ... ؟

لم يجب المتحدث .

— كم أنت سخيف .. فلماذا خابرتنى إذن .. ؟ ضياء ؟ .

— أنا شريف يا أشجان ..

أصابنى ذهول .. وصمت كل ما فى تماماً وقلت :

— شريف أنا ..

— ما حدث هو لست أنت ، ولكنه أنا .

قلت فى نفسى .. نعم ما حدث هو أنك أصبحت فى خبر كان .

قاطعته :

— شريف ... أنت تعلم جيداً إننى .

— أجل .. لا تحبنى ، ولكنى لم أعلم بعد ، إنك تحبين آخر ،

— شريف .. أصغ لى .. !

— ليتك تركتني قبل أن أعرف إنك .. !

أخذت أتأمله ، وشعرت بندم شديد بعد أن تأكدت إنى خسرته ، أجل .. خسرته ولا شك فى ذلك .

وبين لوحاتى وفرشاتى وفنى الصغير ، نسى ضياء مجونه ، وشعرت إنه تاب بين يدى وأفكارى وعقائدى إلى حياة الفضيلة ، وكلما خفق قلبى شوقاً إليه .. أخذت أنظر إلى الزملاء والزميلات فى تأمل مصحوب ببعض الخجل ، لأنى أسئت الظن بهم يومـــا ما ، وتغاضيت عن الحب الذى يركب الإنسان من أجله الأهوال .. !

تزينت ، تجملت ، ولكن فى إحتشام وتحفظ ، وتأبط حقيبتى ، وخرجت لأقابله ، لأزف إليه خبر أنسحاب شريف من حياتى ، والقيت بنفسى فى أول سيارة قابلتنى ، ورأيت السائق يتطلع إلى بشكل غريب ، ظننت أنه يتحايل ليعرف سر إبتسامتى ، وتصورت أن الناس جميعاً يتطلعون إلى ، ويحملقون النظر إلى وجهى ليكتشفوا سر سعادتى ، وعيناهم تتساءل :

إلى أين أنا ذاهبة ؟ هل يبدو على وجهى شىء ما .. ؟

أصابنى ما يشبه التوتر لتصرفاتى ، لماذا أتكبد الأهوال فى سبيل الذهاب معه إلى حانة الرقص ؟ ماذا سيحدث هناك ؟

لا شىء .. أجل لاشىء .. !

وعدت إلى أستعادة السؤال الذى القيته على نفسى مئات المرات :

أحقاً أنا أحبه ؟ وأتجسم فى سبيل هذا الحب كل صعب ؟

وركد ذهنى وأحسست بتبلد وأنا أتابع المرئيات من نافذة السيارة وقد

أستسلمت للمقدور الذى خط لى فى لوح القدر . . أيستطيع إنسان أن يمنع شيئاً كتب عليه ؟

كان فى إنتظارى ، منشرح الصدر ، بادى المرح ، سرنا سوياً بخطوات هادئة ، وأحسست إنى أنفصلت عن العالم تماماً . . عالمى الذى عشت فيه إلى هذه السن ، وقفت وسط البهو انظر حولى فى ذهول ، كأنى تحت تأثير حلم او كابوس كان ضياء يتتبع حركاتى فى سكون ، دون ان يحدث اى حركة تشى بوجوده ولما طال جلوسى وصمتى وانا انظر فى كل ركن من اركان هذه الحانه لأرى اشياء غريبة . . كل فتاة فى احضان عشيقها ، وكل رجل يقبل امراة ، ويداعبها مداعبة غير شريفة ، ملأنى الخجل وغضيت بصرى عنهم جميعاً ، وضع ضياء يده فى حنان على ذراعى . . وإذا بوجهى يكاد يصطدم بوجهه فذعرت وتباعدت ، فندت عنه ضحكة لطيفة رنانه وقال :

— أمزعج أنا إلى هذا الحد . . ؟

فخالط وجهى إحمرار قان واحسست توهج اذنى حتى منابت شعرى وطامنت من راسى وقلت فى خفوت :

— فاجأتنى . . !

قلب يدى وإنحنى على باطنها يطبع قبلة كرفيف الفراشة على الزهر الندى لكنها كانت كافية لأختلاجى أختلاجة أشاعت السرور فى قلب ضياء واشعرته ان العصفور اصبح يمسى فى القفص . . !

نظرت حولى . . شاردة . . أتأمل هذة الحياة الماجنة التى لم اعهدها من قبل . . حياة الرقص والمجوف .

دبيب الحياة هنا لا يسمع له صوت واضح ، إلا عند منتصف الليل ، فنحن الآن فى عالم لا تحكمه ضوابط ثابتة .. كل شىء ممكن .

عالم ليس فيه لوائح الممنوعات والتحذيرات عالم الانبساط فى عقيدتهم ، والنسيان الذى تتجه إليه خطوات كل من فى الحانة ، هو عالم المخدرات والكاسات .

وأعجب ما شاهدته فى حانة الرقص ، الابتسامات الصافية والمهزومة ، الأحزان المكتومة .. والضحكات العالية .

والهستريا كلها تلتقى هنا حيث يتجرد الإنسان من قيمه وعقائده .

عالم مثير ، مسروق من دورة الزمن .

وبين شرودى فى وسط هذا العالم الغريب لمحت ضياء واقفاً يدعونى للرقص على أنغام الموسيقى الهادئة ، حاولت الاعتذار فلم أفلح ، خطوت معه بخطوات بطيئة وأحاطنى بذراعه .

أحسست بأنفاسه تلفح أذنى ، وبشفتيه على شعرى فى قبلة كرفيف الفراشة ، ثم انحدر إلى أذنى ثم إلى رقبتى . . وراح يمرر فمه على فى رقة ووجد ، وذراعاه تحتضنى من الخلف .

أنتابتنى رعشة غمرت جسدى بأكمله ، ولم أستطع المقاومة ، فالنشوة التى أحتوتنى أستلبت قوتى وتركتنى لا أقوى على الحركة .

كم من الوقت مر على وأنا على حالتى تلك . . ؟

لا أدرى . . لكننى لم ألبث أن تمالكت نفسى ، وفى حركة بطيئة أزحت يديه من حولى وقلت له :

ـــ يبدو إنك لم تتعلم بعد فن الرقص ؟

قال :

ــ وأنت لم تتعلمي بعد فن الحب ؟

ــ ولا أريد أن أتعلمه ، لأن الحب لا يعلم ولا يدرس كما أنه ليس للحب من فن . . !

قال وهو يحاول أن يضمني إليه :

ــ ألست حبيبتي ، أريد أن أشعر إنك ملكا لي وحدي ، ألم تحبيني ؟

دفعته بيدي للخلف وأنا أقول :

ــ لست أدري . .

أزعجته إجابتي فقال وقد كسى وجهه شيء من الهدوء :

ــ ليتني أعرف ما يدور بذهنك . . أشجان إني أحبك .

ــ وأنا أيضا أحبك، ولكن حبي لك يختلف كثيراً عن حبك لي . . أعترف إني شعرت بشيء ما نحوك ، لكن ليس هو الحب . . أحسست بك رجل تحاول أن تسيطر على أحساسي كأنثى . . وأحسست إني أنثى وأنا أرفض أن أكون أنثى فلم أشعر بقلب محب يدق وينبض . ولكنني شعرت بقلب وحش يريد أن يلتهمني .

ــ أشعرت بكل هذه الأشياء في تلك المحظة القصيرة ؟ ثم ماذا يعني أن تشعرين بي كرجل ؟ ألست رجلا أمامك ؟ !

ــ الرجل في اعتقادي لا يحمل معنى الرجولة التي تتباهون بها ، أنا لست بحاجة إلى غرفة نوم . . وفراش . . وذراعين ، أنا بحاجة إلى عقل وغرفة مكتب . . ولوحة . . وفرشاه . . بحاجه إلى إنسان لا إلى رجل .

وتركته ، تركته على الرغم من أن المرأة في أعماقي تثور . . تتمرد على

معتقداتي ولكني أبداً لم أعترف بل تجاهلت أنوثتي فأنا لست أنثى ولن أعطى الأنثى داخلى الفرصة لكى تنتصر على .

كان ضياء أقوى من أن يهزم ، وعرف كيف يبطن لى ما رغب فيه . وأظهر لى كل الحب والبعد عن اقتراف أى فعل من الممكن أن يبعدنى عنه وبدأت أعنف ذاتى على مهاجمته دائما .

بدأت أخطىء من صوابى وكان على أن أهدى من ثوراتى عليه . وعدت من جديد لا تجاهل ما أتوقعة .. وأنطلقت .. رشيقة الخطو .. فياضة البشر .. مرحه ، تكاد الأرض لا تحملنى ، وطار شوقى المفتعل الى ضياء معبراً عن محاولة للاستمرار معه .

وذهبنا بعيداً .. بعيداً عن طرقات الأرض الى الهرم ، وأخذنا نجرى ونلعب نلهو ونمرح بين الصخور والرمال .

وغابت الشمس وبينما أنظر إلى ساعة معصمى .. أمتدت يد ضياء تربط على على كتفى وسألنى بنبرة عذبة .

ــ أشجان هل أنت تحبينى ؟

قلت وأنا أنفض شعرى للخلف :

ــ لن أجب على هذا السؤال .

أنحنى على يدى يقبلها قائلا .. لا تعرفين كم أحبك . !

نهضت من مجلسى ، ولكنه أمسك بذراعى فى قسوة قائلا :

ــ إلى أين ؟

ــ أريد أن أذهب ؟

ـــ ماذا بك ؟

ـــ لا شيء . . ؟

نظر إلى وعيناه قد ملئهما الشيطان . . يتجسم فى حركة ، نهضت مسرعة ، ربط على ذراعى بقوة لم أعهدها فيه من قبل ، فذعرت منه . . وأزحته للخلف وأسرعت ولكنه سرعان ما لحق بى ، وقعت على الرمال وهو يحاول أن ينقض على ليفترسنى . . شعرت أنه وحش حقير (كلب مسعور) وأمامه قطعة من اللحم يريد أن ينقض عليها ليفترسها بين أنيابه . . حاولت بأقصى قوتى الافلات وأسرعت خطواتى وتلاحقت أنفاسى الصاعدة . . وسالت دموعى على وجنتى .

وأحسست أن العالم ينهار على مرأى منى . . أبداً لم أتوقع منه هذا الفعل يوما ما . . تركتة ولم أفق على النظر إليه بعدما أنكشف أمره .

حاول أن يخابرنى وما إن أسمع صوته إلا أعيد المسماع لموضعها .

ويوما رجا شقيقى لاسمعه . . ووضعت المسماع على أذنى وسمعته بدون اكتراث . . قال كلمات كثيرة ، سخيفة ، إننى أحبك . . وأن ما حدث لم يكن بارادتى . . وأن هذا هو الحب وإنى . . وإنك . . ونحن . . و . !

وما أنتهى من الحديث إلا وجلست على مقعدى ثم نهضت من فوقه ، ذاهبة آتية فى أرض غرفتى ، وأخفضت بصرى كمن يرتبك لعمل رحيم لا يستحقه ، وكأن أملى المتكلف يحاول أن يتخذ قناعاً من الحزن .

وأصبحت نهب قلق عميق ، ولم أملك إلا أن أفكر فى أسف شديد وأنا أعانق وسادتى ، وأخذنى الصمت ، وأنا جالسة على الفراش ، حتى جاء الليل . .



وامتزجت روحى بأنغام من العذات ، فأصبحت لحناً يائساً يتطاير فى فضاء غرفتى ويسكب فى كل ركن فيها جواً هادئاً حزيناً . . ويهيم باحثاً عن كلمات لا شكو بها إلى لوحاتى . ولكن تعثرت خطوط رسمى .

ولأول مرة شعرت بالوحدة ، وأخذت أبكى بكاء عصبياً وأرتفع عويلى وكأننى أردت أن أملأ الغرفة والبيت كله بأساى . . وكان قلبى أضعف من أن يتحمل وحده هذا الآلم ، وفى الحقيقة إننى لم اكن ابكى على ضياء بل بكيت على نفسى وعلى حالى والصراع الذى خلفه لى .

واخذ يرسل لى رسائله مع بعض الزميلات . . كنت أقرأها بعين مجردة وأنا اكتشف كم يكون شديد الغرور . . أبعد مافعله يظن إننى من الممكن أن إعود اليه . . كم هو سخيف .

وتمسك أناملى بآخر رسالة له . . الرسالة التى قرأتها أكثر من مرة ، وإذا بى أحرقها اليوم . . وشعرت إننى أحرق آخر شىء فى ضياء .

وتذكرت كلمته الآخيره التى رأيت حروفها تتراقص أمام عينى .

أنت لست فتاة ويجب أن تتعلمى كيف تكونى فتاة .

واليوم . . أخذت هذه الجملة تدوى فى راسى ، وبسرعة البرق لمعت ملايين الافكار بعقلى وراحت تدوى كالرعود ، تزمجر وتعصف بكل معتقداتى الماضية . . أنا لست فتاه . . لاننى أحافظ على نفسى .

انا لست فتاة . . لاننى لست مبتذلة .

أنا لست فتاه .. لانني شريفه .

ماذا تعني كلمة شرف عند المجتمع ؟

أنا لا اكترث بالأخلاق والقيم التي تقلتها وتطالبني باحترامها، انا أؤمن بالاخلاق الصحيحه ، بالأفعال التي يرضى عنها الضمير الصحيح لا العادات .. فلا أجد فضلا لإنسان لايحيد عن الاخلاق لمجرد أنه يخشى التقاليد ، لان هذا الإنسان لايبذل مجهوداً للتفريق بين الخير والشر ، أخلاقه اصبحت عادة ورثها ، لاضمير يهتز لأفعاله .

نعم . . أنا لست فتاة .. لأن قاعدة العادات والتقاليد والمبادىء تطبق على أنا . ، أنا الفتاة .

الفتاه دائماً هي الملوم .. فيتعلم الابن منذ الصغر إنه سيد لاحدود لتصرفاته وذلك لأن تلك التصرفات لاتترك عليه آثاراً بيولوجية .

هذه الجملة ، أنت لست فتاة .. جملة القاها رجل .. فجاءت عاصفه تنفخ الرماد وتؤجج الجمر النائم في كياني .. جملة صغيرة دمرتني وأشعلتني في آن واحد .

هكذا يكون الرجل .. يرمي بالكلمات العاصفة ، وأنا أبني من الكلمات قصوراً وأعمر فيها أياماً وشهوراً . . أبحث في حروف هذه الكلمات عن المعاني المختبئه وأصور هذه الحروف بالف لون ولون .

ودائماً يتركني الليل ويمضي لأصارع وحدي في الحياة . . تغيب الشمس ، ويأتي الغروب ، وكلما حان موعد الغروب .. تذكرت اللحظة الأخيرة بيننا ، فازداد كراهية واحتراماً .

وسافرت . . سافرت على أرح عن غرفتى التى أصبحت غير أليفة لأحزانى وشجونى ، ومثل كل يوم أخاطب الليل صديق .. أما اليوم فحديثى مع الأمواج

أرى الموجه وأرى نفسى أحدثها حديث الصمت علها تفهمنى :

مادا تحملين إلى أيتها الأمواج ؟

لماذا تتخبطين هكذا .. ؟ ألا تدرين أن الموت ينتظرك ؟

كم أنت مسكينة أيتها الأمواج .. شعرت بانقباض إننى أشفق على الأمواج والأجدر أن تشفق هى على .

وتساءلت .

هل هى حقاً تموت ؟

إنها تقتل كل يوم الوف المرات على الشاطىء ، ولكنها تعود دائماً شاردة ، . تائهة . ، ساخرة من البشر .. متمردة على الوجود .

لماذا لاتبكى أيتها الامواج ؟

وضاعت نظراتى فى الأفق البعيد ، وأمتلأ قلبى حزنا بالحياة . . وكلما فكرت فيه غلف أفكارى الضباب . ومضت الأيام . وأنا دائمة النظر إلى البحر ، يائسه من الحياة

ومضى ضياء كما يمضى أى شى فى حياتى ولكنه ترك أثراً سيئاً فى نفسى .

أرتميت فى فنى . واخذت أصدق فى هذه اللوحة التى لم تتم بعد .. وشعرت بأنى أنظر إلى جزء حى من حياتى ، جزء قامت بتصميمه دموعى وسط الليل شىء عجيب فى هذه اللوحة . !

أشعر بها تتحوك . تتراقص أمام عيني وكأنها تذكرني وتخاطبني بالإمس ، وكلما أمسكت أنا ملى بالفرشاة، وسبحت أفكارى فى دنيا الظلام أجد فرشاتى تطبع نقاطا سوداء قاتمة مظلمة حول الطاووس الجميل الذى يملأ اللوحة .

وقليلا ما أنتبه إلى أن هذه النقط السوداء قد أصبحت تظـلم اللوحة بصورة كئيبه .

وأتساءل . كيف ومتى خطت فرشاتى هذه النقط التى لم تـكن بارادتى ؟

وتلقائياً تغيرت ملامح الطاووس بهـذا الظـلام الذى خيم عليه من كل جانب .

ودارت الأيام وأنا على مثل هذا الحال .

أخذت من الرسم وسيلة لإغراق ذاتى ونسيان ما حل بى . . فالحب يزول والعاطفة تمضى ، ولـكن الفن وحده يخلد .. وضياء لم يبق منه شىء سوى لوحه قاتمة فى معرض ذكرياتى .

ولم ترتعش الفرشاة فى يدى ولم تهرب الخيالات من ذهنى ، بل لقد عادت لوحاتى إلى بعد أيام وليالى حزينة طواها الليل وغابت . . وذكريات أليمة نامت فى حنايا الليل وتاهت .

وإذاكان الحب ينقذنا من الضياع والحرمان فإن العقل وحده هو المنقذ الوحيد لشتى ألوان الحياة .

* * *

تدهورت صحتى ، وجئت لأصارع الناس من جديد ، زميلاتى ماهم إلا تلك الفتيات اللواتى يتحلين بمركب النقص فتريد أن تحط من شأن غيرها كى يرتفع شأنها هى .

وأقاويلهم لم تزعجنى . . على العكس ، سرنى ذلك ، وأعتبرته مديحاً .

فلو كانت شخصية إحداهن قمة لماحاولت تحطيم كل القمم التى تحيطها ، كى تعلو هى . . وتعلو على حطام هذه المرتفعات . . تفاهه .

وشعرت بسخرية . . لأن التفاهة تحيط بى . . والحقد يكثر من حولى .

وما أكثر ما قيل عن أشجان وضياء . . وأن أشجان كانت مع شاب .

هذه هى الحالة فى بلدى .

يقولون أشجان أو هدى كانت مع ضياء . . ولا يقولون أبداً ضياء أو حسن كان مع فتاة .

عيون الناس تراقب الفتاة دائماً لا الشاب .

اشجان كانت مع شاب .

سيان عندهم . . أكان هذا الشاب هو احمد ام محمد . . المهم هو انه شاب وان اشجان كانت مع شاب . . ياللوقاحة .

أحسست اننى أعيش فى حالة حصار غريبة من الأسئلة . .

والحصار الذى يملؤ غرفتى قد نسج فى سؤال واحد وأصبح هو النغمة الوحيدة التى أسمعها .

هل من المفر ؟

وأنظر من شرفتى . . ارى السما. وقد تربعت فى كبد السحاب وراحت تصب اشعتها فوق الأرض ناراً ولهيباً قاسياً . . وفجأة رأيت عربة عمى تقف بجانب البيت ، ويهبط منها . . أسرع وافتح الباب له واهلل لرؤيته ، كم اشعر بحاجة إليه وانا فى مثل هذه المواقف يدخل عمى غرفتى . . وقد ارتسم على وجهه علامة استفهام غريبة .

سألنى : —

— كيف حالك . . ؟

قلت له كعادتى كل شىء حدث . . ولم أتوقع انه سينضم إلى الناس فى وجهى .

وقال :

— انا مازلت لا افهمك . . !

اجبت :

— انتم اعجزمن ان تستوعبوا وضوحى ، فالوضوح فى مجتمعنا نوع من انواع الغموض .

— نعم الوضوح وليس الصراحة .

— اتطالبنى بالكذب والخداع . .

— لا . . انا اود ان تفهمين ان الصراحة ليست فى كل شىء . .

اشرت بيدى له مندفعة كالسهم قائلة :

ــ لحظة من فضلك (الصراحة ليست فى كل شىء) .

اخذت اردده بقوة وانا أدور فى أرض عرفتى قائلة :

ــ هذا معناه ان للصراحة أنواع . . والصدق ايضاً انواع ، والحق . . والعدل . . والرحمة انواع ، اى منطق هذا الذى يقول أن للحق انواع .

تركنى أثور عليه كما اشاء ولم يقاطعنى .

اصغ لى واجبنى . . ماذا يعنى من يسرق بنك ؟ .

فتح فمه ليجيب ، فوضعت يدى على فمه . . لا . . سأجيب انا ، يعنى إنه لصاً . . ثم ماذا يعنى من يسرق منزل . ؟؟

يعنى ايضاً انه لص .

والقانون ياسيدى لا يعف سارق المنزل من العقوبة الكاملة ولا يلتمس بذلك إنه سرق منزل . . معذرة لك ولأمثالك ياعمى . . إننى احب المواقف الواضحة لأننى اؤمن بكل شىء أفعله .

إلى متى تتصرف كاللصوص . ؟ الى متى ؟

لقد أصبحت الفتاة تأتى بأفعالا لا ترضى عنها القيم ولا الأخلاق الصحيحة . نعم إن كل فتاة تفعل كل شىء خلسة من المجتمع . وكل والد راض عن أبنته . . والمجتمع يتحدث عن حسن سوكها يالها من فتاة شريفة مثاليه طاهرة .

فما أقبح المجتمع الذى لايحب الصدق . !

ولكنني لا .. لن أتدهور إلى وادي الكذب لا . أنا أكره النفاق .. أعلم إنه ستشرئب الأعناق وتتسع الأحداق وتلوسنى الألسن نعم سيسيئون فهمى .. وسيخطئون مرة أخرى فى أحكامهم على .

وجلست على مقعدى وكأنى وقد انتهيت من ثورتى تماماً .. قلت بهدوء حقاً .. إنه لمعذرة شديدة ، لأن منطقك هذا هو منطق كل الناس .

حاول عمى أن يوضح لى أنه يفهم جيداً ما أقوله .. ولكن الناس ليس مثله ..

قلت بصوت خافت :

— أرجوك إتركنى وشأنى ، أريد أن أخلو بنفسى ، أغلقت خلفه الباب ثم ألقيت بنفسى على المقعد أمام المكتب ..

وأرى ذلك الظل القاتم من الكآبة الذى اكتنفنى وغطى ملامحى ، وعقلى يضرب معلقاً كأنما هناك أشياء مختبئة قد خرجت من مكامنها فجأة داهمتنى تلك الأشباح التى كادت تخرج من مخابئها وكأنها أفاعى قد خرجت من تحت الأرض لتلتف حولى وتعتصرنى ، وشعرت بالقسوة تجمد أطرافى ..

ماذا يحدث لى .. ؟ ماذا يريد منى هؤلاء ؟ ..

فليقولوا ما يشاءوا .. وشعرت برجفة .. وبدا لى كل شىء فى الغرفة شبحاً لوحش يريد أن ينقض على ليفترسنى .. ورميت عينى المحملقتين بنظرة متحدية وقلت بهوس .. لقد أضعت وقتاً طويلا فى الفكر مع هؤلاء ..

سأنصب شراعى فى مهب الريح .. سأسحق مقتنياتى واقذف بها العاصفة .. سأعرض عن كل هؤلاء .. ولن يجرفنى الدوار ..

فليكونوا سعداء .. مخربين ، بلا عقل ، بلا قيم ، بلا شرف .. ولأكون أنا المجنونة فى عقيدتهم ، ولن أتقبل الشيطان .

سأقبض على الأدوات وأدمر كل شىء ولن أتخلى عن إحدى مبادىء .

ونظرت نحو لوحتى الحزينة وتلبدت سمائى بغيوم الذكريات المتجهمة وتقطرت دمعات عينى على هذه اللوحة .. وأنا اقول، لقد قال سقراط لقضائه: (أنا فى طريقى لأموت وأنتم فى طريقكم لتعيشوا والله يعلم أينا أهدى سبيلا) .

وتحت هذه الكلمات .. لم ترعجنى الاقاويل التى كانت تقال عنى . . وكان يصلنى معظمها . . كنت أسمعها بأذن مجردة ، وأشعر بنوع من التسلية وأنا اكتشف كم يكون خيال الناس واسع وخصب ودائماً أردد ببرود .. حين يركلنى الناس من الخلف فمعنى ذلك إننى أسير امامهم فى المقدمة .

واوصدت على نفسى الباب واحسست براحة عميقة وانا اتفرغ للرسم ..

أصبحت هادئة . . وآثرت الوحدة ، فخير لى أن أحدث اللوحات التى لاتنطق ولكنها تفهم وتعبر عن التحدث مع إناس ينطقون وما اكثر مايتفوهون به ولكنهم لا يفهمون .

* * *

(١٠)

احاول ان الملم الشتات .

ان استجمع الذكريات ، وارتفع فوق الاحداث .. أن أنظر إليها من علياء .. بنفس صافية .. بذهن رائق وعقل مستنير خيالية انا .. تستغرقنى

الأحلام ، تستهوينى الأطياف ، وتختلج كل ذرة فى كيانى ، تأثراً وتجاوباً مع السحاب .

استيقظت مبكراً على غير عادتى ، حاولت أن اغفوا قليلا ، لكن موجة من النشاط شملتنى .. تركت الفراش ، ذهبت إلى الشرفة حين سمعت زقزقة عصفور ، وقف بالقرب من النافذة ، شعرت بأن خياله يملؤنى بالمرح وهو يقفز وينقر بمنقاره على الزجاج كأنه يحيينى تحية الصباح . بعد لحظة ..رايت خيالا لعصفور آخر .. لابد إنه وليفه .

أنتابتنى رغبة قوية ان اشاهد هذا المنظر الرومانسى الحالم ، اخذت اعالج الشباك برفق ، ولكن ما ان فتحت النافذة حتى طار بعيداً عنى .

ما حالى اليوم ، اشعر بمرح داخلى ولم ادع لعقلى فرصة كى يسلب منى هذه اللحظات ، واخذت اعد نفسى لموعد المسابقة الفنية ، عدت من المسابقة وراس يدور به سؤال .

هل الأبيض لون . ؟

إن هذا السؤال قد اثار حوله مناقشات .. فقد طلبت الفنانة صاحبة المسابقة تصميم لوحة فنية من لونين فقط ، وتركت للمتسابقين اختيار الألوان .

اخترت انا الأزرق ، والأخضر فإن إختيارى لهذين اللونين ينطوى على الشجاعة والثقة والإحساس بالحياة .

وأطلقت لخيالى العنان فى التعبير ، تذكرت أشياء رائعة ولكنها مختلطه بأشياء أخرى حزينة وعندما تعانقت خيوط الأزرق مع الأخضر راق لى

أن أضع لمسات خفيفة من الابيض ، وبسبب الابيض الذى وضعته فى لوحتى حدثت المناقشات ، ودافعت عن لوحتى أمام الجميع . . وأن الابيض ليس لونا فى حد ذاته وإنه نتاج عناق الالوان وذكرتهن بنظرية ألوان الطيف وأيدتنى بعض الزميلات ، أما المسئولة عن المسابقة فقد بدى عليها أمارات السعادة .

وتمر الايام ويعلن نجاحى بفوز هذة اللوحة بالمركز الاول ، ولاول مرة أقتحم المعارض الفنية لاعرض فيها لوحاتى ، وكم غمرتنى السعادة وأنا أعلم أن من بين الزائرين عادل أوهم . . الفنان الكبير الذى ملأ أسمه أرجاء الارض والسماء ، كم أتمنى رؤياه .

ترى هل أستطيع التحدث اليه ؟ هل ستعجبه لوحاتى ؟

أخذت اتزين واهيىء مظهرى وبينما اداعب خصلات شعرى وانا اقف امام المرآة ترتسم على شفتى إبتسامه صغيرة تحملنى إلى شوق لرؤياه وفجأة تقلصت قسمات وجهى ، كيف اكون بشوق إلى رؤياه ؟ . انا بشوق لعرض لوحاتى عليه .

ذهبت المعرض . . ساحات واسعة وفسيحة ، والارض ممتلئه بالزائرين والحائط والجدران ملىء بمختلف اللوحات الفنيه البديعه ، ولاحت نظراتى بين المدعوين ، وكل لحظة تبحث عيناى عنه ، واكثر ماشغلنى هو رؤيه عادل اوهم .

تعثرت طريق زميلة فقالت :

ــ الم يأت بعد ؟ .

أدرت وجهى متجاهلة :

— عمن تتحدثين ؟

— عادل ادهم . . وهل يوجد سواه !

بدى على الاضطراب وانا اجيب :

— كم أنت ذكيه . . !

تركتها بعد ان لمحت خيالا له يقف من الخلف . . أسرعت اليه . . ووضعت يدى على ذراعه من الخلف قائله :

— الفنان عادل ادهم . !

التف الرجل الى ضاحكاً . . وضحكت أناخذلا قائله :

— عفوك ياسيدى . . لقد ظننتك هو . !

سرت مسرعة وتعثر تنى تلك الزميله السخيفه الفضولية قائله :

الم اقول لك انك فى إنتظاره !.

وابتسمت ابتسامة ساخرة قد اعتلى رنينهابين قاعه المعرض. .نفضتها بيدى زاعرة ، وذهبت لمسايرة الزائين والحديث معهم ، وعيناى لاتكف عن البحث عنه .

انتهى المعرض . . وعدت سائرة تقطع قدمان الخطوات الحزينه . . اقتحم غرفتى فى غضب . .وقد ارتسم عل وجهى سؤال .

لماذا انا حزينة ؟ لم يحدث مايحزننى .

على العكس . . كل ماحدث إننى حصلت على إعجاب الجميع .

وبحثت عيناى عن لوحته التى أهداها الى من قبل ،وتلتقطها يدى . فأضمها إلى صدرى . . واحسست أننى اتلاشى بين خطوطها وقسماتها ، ووجدتنى أحدثها كعاتى المجنونة .

لماذا لم يأت المعرض . . ؟

أجل إنى افهم ، فهو دائماً مشغول . . مشغول لان من مثله لا يكون خالى الوقت ابدا . اخذت أتخيله فى شتى الأوضاع

تاره هو يبتسم فى سخرية ، وتاره يستمع فى انتباه ، وتارة اخرى يتحدث بعمق .

كم يعجبنى هذا الرجل العميق . . عميق عمق البحار ، لا يأخذ قشور الأمور والمسائل ، بل إنه يقتحم اغوارها . . وابدا لم اتخيله حزين اى مهموم غاضب أو مهرجاً . . سخيف . تافه .

فهو دائماً أمامى . رجل حكيم ، متزن ذو نظره صائبه إلى اغرار النفوس ، فيه من الوقار والرزانة مالم أعهده من قبل . .رجل ذو مبدا وهدف فى الحياة ، كم احب شعره الابيض الذى يحمل معانى الحياة وخبرة ستون عاماً بأكملهم .

أتذكرين ايتها اللوحة متى أهداك الى . . ؟ ولكننى أذكر هذا اليوم جيداً أحفظه عن ظهر قلب . . اذكر كل كلمة قالها لى فى الندوة . . ولكن لماذا اهداك الى انا بالذات . . ؟

ولماذا كان يجيب على اسئله الحاضرين مصوباً نظره على ؟ محدقاً فى باعين مستديرة .

كم أنا بحاجة شديدة إليك أيتها اللوحة الجميلة، الآن أنت تبددين وحشتى .. وتقتلين وحدتى .

وأغرورقت عيناى عندما شعرت بالامان وأنا أعانق لوحته . . ورضيت بلوحاته بديلا له ..

فاذا كان الواقع دائما مزيف ، فلاعيش حياتى بين هـــذه اللوحات التى لا تعرف الخداع .

ويمضى يوم أثر يوم ، وأنا أجمع كل لوحة عرضت له . . حتى أصبح لدى كل أعماله الفنية .

أثرت الجلوس فى غرفتى وأصبحت حبيسة الفن . . دائما أجلس بين لوحاته أستعيدها واحدة تلو الاخرى ، وكأنى أطمئن عليها ، وأقف دائما عند تلك اللوحة التى أهداها لى .

أعانقها بشدة ولهفة . وكم أشعر بالراحة وهى بين يدى .

يمتلكنى إحساس عميق بالهدوء وأنا أفكر فيه . . أشعر به موجود معى .. روحه تهيم على ، أنفاسه تتردد خلفى ، حتى خيل إلى إننى أسمع نبضات قلبه تدوى وتنبض فإذا بى أنتبه دائما على إنها نبضات قلبى أنا الصارخة به حباً . . هكذا دائما ، واقعى يسلبنى أحلى لحظات أعيشها لينقلنى إلى حقيقة مزيفة .

أياماً وشهوراً تمضى وأنا على تلك الحال .

أياماً وشهوراً . . وأنا أعيش قصة حب عنيفة .

قصة حب أنا فيها العاشقة والمعشوق . . الخالق والمخلوق . . العابد والمعبود .

قصة آثرت فيها البطل أن يكون لوحة صادقة عن رجل كاذب .

لوحة تعبر ولا تنطق .. تشعر ولا تتحرك .. تعانى ولا تتألم كم أنا أعشق هذه اللواحة .

وبدأ الجميع يستكشفون امرى .. يقولون إننى أحب الفنان عادل أدهم .. وابدأ .. لم اعترف .. أنكرت ذلك بشدة واحسست ان هذا سراً لا يمكن لمخلوق ان يطلع عليه طالما انه محفور داخل قلبى انا وحدى .

وذات يوم .. وصلتنى دعوة من احد الزملاء لحضور الجلسة الفنية التى يرئسها كبار الفنانين .. لم اتردد فى الذهاب .. بل ذهبت وبحثت عيناى عنه فى كل ركن إلى ان وجدته يجلس فى المقدمة .

يتحدث .. يشير ! يبتسم .. يعلق .

ها هو عادل ادهم .. بذاته يجلس امامى فى هذه القاعة الواسعة ، وعندما بدأت الندوة الفنية جلست فى الخلف .. حتى لا يرانى .

تحدث عن كل شىء .. كما حدث منذ عام منذ اختارنى انا دون المدعويين والزائرين ليهدينى احدث لوحاته .. ؟

تراه يذكرنى .. ؟ لا اظن .

وعندما انتهت الندوة ، اسرعت بمغادرة القاعة ، واسرع خلفى احد الزملاء ولحق بى ، فوقفت .. استطلع ما يريده فقال مشيراً بيديه للخلف :

— الأستاذ عادل ادهم ينتظرك هناك .

اخذتنى الدهشة .. وانا اسرع نحوه فى تباطؤ .. ومددت له يدى لاصافحه فقال :

— اشجان .. اليس كذلك .. ؟!

أبتسمت :

ـــ نعم . . أنا أشجان . .

سألنى :

ـــ أين اختفيت . . ؟ ولماذا لم أراك منذ بدايه الندوة . ؟

تلعثمت وأنا أجيب :

ـــ لاشىء . . ربما لأنى كنت أجلس فى الجهة الخلفيه

ـــ وماذا عن أعمالك الجديدة ؟ أتمنى أن أرى لوحاتك تلمع فى قاعات الفن الواسعة .

قلت :

ـــ الآن أنا أصمم لوحة صغيرة . . ولكن لم أنته منها بعد . .

ـــ أريد أن يكون أول من تعرض عليه هذه اللوحة . .

أضطربت وأنا أجيب :

ـــ يشرفنى ذلك .

جذبنى من يدى اليسرى قائلا هيا . . حتى أو صلك .

وما إن وضع يديه على يدى حتى ارتعشت يدى رعشة لم أستطع اخفاءها . . واحمر وجهى خجلا . . وفتحت باب سيارته . . وجلست بجانبه . . . مضى يتحدث عن أشياء متعلقه بى . . وبدأ بملامحى التى تغيرت تغيراً كاملا منذ عام وعلى الرغم من ذلك عرفنى ولم يخطىء فى معرفته لى . . وتحدث عن دراستى . . وأخير طلب منى رقم الهاتف . . أعطيته الرقم دون تردد ، وأعطانى عليه كارت

عنوانه ورقم هاتفه . . مؤكداً على إنى يجب أن أسأل عنه وعن أحواله . .
هبطت من سياراته وانا أخفى نظراتى عنه .

ولم يمضى أكثر من يومين.. الا ودق رنين الهاتف معلناً فى جرأة وتحدى .. إن عادل أدهم هو المتحدث . .

وهنا صاحت الطيور فى السماء تبشر بمولد يوم جديد ، وعذاب أيضاً جديد . . وعلت نبضات قلبى بصوت خافت مرتجف . . تسأل عن سر هذا الاهتمام الغريب . ؟

وكالمعتاد . . هناك فى اعماق سؤال يبحث . . ويبحث دون جدوى ، فلا يجد جواب . . ؟

بحاورته ، وحاورنى يوماً . . وأيام .. ونحن نتبادل الحديث .. دائماً تتلاقى أفكارنا .

رجل هو . . فيه من النضوج ما يأسرنى ، أعتدت على سماع صوته الذى يمنحنى الثقه ويعطينى الأمان .

ويوماً كان مريضاً . . وأشتد عليه المرض . . فلازم فراشه ، ودعانى لزيارته .. ولم أتردد بل ذهبت اليه وكلى أمان وثقه بأنى لم أدخل بيت رجل فحسب بل إنى سادخل بيت فنان عابد . . كهل كبير ، ذو احساس . إنسان فيه من الوقار والاتزان مايجعلنى لا أتردد ، فى قبول زيارته .
وحاولت أن اكرر عدم قبولى لزيارته أثناء مرضه على لا أرهقه . فقال:
ـــ لن ترهقنى تلميذتى الصغيرة .

سألته بخفة :

— دائماً تناديني بلقب محب ثم تعقبه بلقب مكروه .

ضحك قائلا :

— كيف .. ؟

— دائما تقول لي تلميذتي الصغيرة ، تلميذتي نعم .. لا يوجد لدى مانع .. إما وإنى صغيرة فهنا يصبح لدى عدة موانع وموانع .

علت ضحكته الصاخبه قائلا :

— أنا لا أقصد صغيرة بالمعنى الذى تفهمينه .. فأنت حقاً صغيرة السن ولكنك فنانه والفنان لا يقاس بعمره ، بل يقاس بما لديه من قدرة على التعبير والخلق والابداع .. فكثيراً منا يعيش ولا يحيا ولكن القليل منا هو الذى خلق ليحيا . . ويخلد مدى الحياة .. كنت أسمعه بأذن صاغية .. وتنبهت على صوته يقول :

— أشجان أين ذهبت ؟

— لاشيء .. أنا أصغ اليك :

— فيما تفكرين ؟

— لاشيء . . . لا أريد أرهاقك أكثر من ذلك .

— متى ستأتين لزيارتى ؟

— سأخابرك لأحدد الموعد .

— سأنتظرك من الآن .

أنتهت المحادثه . و كان على تحديد الموعـد ، أرخيت جسدى على الفراش وأنا أفكر فى هذه الجملة التى قالهـا فى نهاية المحادثة (من الآن سأنتظرك) .

كيف ولماذا ينتظرنى من الآن . ؟ هل هو . ؟

لا . أياك ياقلبى أن تخلط بين الحب وبين الاهتمام والاعجاب والتقدير .

شعرت بأنقباض . . نهضت من الفراش وحملتنى قدماى إلى الشرفة . .

وجذبت بيدى الستار للخلف وأنا أنظر من هـذا الارتفاع إلى الميل .. وأخذت احدثه .

أحس بارتياح عميق رغم امتدادك اللامتناهى أمام عينى .. أشعر بأن الله قد خلقك لى أنا وحدى . . كى أسهر كل ليلة معك مترنمة بأغنيتى الحزينة التى طالما سمعتها منى .. أسبح فيك بنظراتى وأدفن فيك حزن كل يوم أعيشه .

ولـكنك تمضى ، حتى أنت ايها الليل تمضى كما تمضى لدى كل معنى جميل تمضى وتتركنى للشمس المحـرقة القاسيـة ، والحيـاة التى لا تمـل من إيذاء البشر . . والقدر الأحمق الذى يلتى بسخفه على الناس .

يترامى الآن إلى سمعى صوت أنغامـك الذى طالمـا حفظتـه ورددته وأنا بعيدة عنك .

يترامى الى تلك السيمفونية السوداء ولـكنها اليوم على غير العادة . . سيمفونية حزينه ، خائفه وسمعت طائر الليل يشدو بأنغام من العذاب .

وتساءلت ولا أحد يجيب .

ترى ماذا تحملين إلى أيتها الحياة من جديد ؟ ألا ترحمى قلبى الصغير ؟ .

* * *

الجزء الثانى

(١)

كان الوقت مساء والبيت بمن فيه هادئاً . .

جلست فى وسط الشرفة أمسك بالفرشاة واللوحة أمامى . . لوحة لم تتم . . كلما عزمت على أتمامها .. أخذنى الشرود والصمت ..

واليوم .. أخذت تتردد فى ذهنى كلمة نجاح . .

النجاح فى حياة الإنسان ليس فى الثراء والتفوق والمركز المرموق ، كل هذه الصفات من اللائق جداً أن يلحق بها الإنسان ..

النجاح الحقيقى هو أن يشعر الإنسان بوجوده . . هو أن يدق قلبه معلناً فى جرأة أنه يحب ، وأنه سعيد بحبه هذا ..

أن يشعر أن قلبه ينبض لا أن يضخ الدماء فقط .

والسعادة الحقيقية هى أن أعترف بهذا الشعور الغامض الذى يسرى فى النفس ويملأونى بتفاؤل وتشاؤم .. وخوف وقلق .. وفرح وتماسة .

أن أشعر بأن الدنيا بين كفى ، وأن الإنتظار ليس ككل إنتظار والقلق ليس ككل قلق . .

تنبهت من شرودى على قول جيهان عادل أوهم .. وأعطتنى الهاتف .. وفى صمت بالغ ، وبأصابع متلهفه .. أمتدت يدى تحمل المسماع .. ليسقط كبريائه ويدعونى لزيارته كما وعدته من قبل .. وبدأت الفرصة تتسلل إلى قلبى وإن كانت مؤقتة ..

خرجت أنا وجيهان لزيارته . . كانت خطوات جيهان هادئة واثقة بأنه لاشيء هناك .. وكانت خطواتى أنا متعثرة متخبطة . . مضطربة . . بأن شيء ما ينتظرنى هناك .. وتساءلت :

هل أنا أحبه .. ؟

شيئاً ما يجذبنى إليه . . . ولكنه لا . . ليس هـــو الحب . . . فلماذا إذن أنتظرت مخابرته .. ؟

ربما لأنه رجل ذو مكانه اجتماعية لا أكثر من ذلك .. شيء طبيعياً أن أقابله الاهتمام .. وإن كان هو اهتم بى وأنا لاشيء بالنسبة له .. فهل أنا لم أهتم به وهو كل هذه الأشياء .

وحين وصلنا البيت . دقت جيهان رنين البيت . واضطربت . . وبدا على الاضطراب واضحاً .. فتحت لنا سيدة عجوز . . ورحبت بنا على الفور ، وكأنها كانت فى انتظارنا تقدمتنا إلى غرفة نومه حيث يرقد على الفراش وظهرت عليه علامات الإنتظار . . ولهفته فى سلامه وترحيبه ، جلست بجانبه على الفراش . . بينما جلست جيهان أمامنا على أحد المقاعد . . ومنذ جلست وهى أخذت تعبث بشرائط التسجيل .

وأخذت نظراتى تدور فى غرفته .

فراشه غير منظم . . كتب كثيرة مبعثرة على مكتبه وملقاة على المقاعد . . والغرفة مليئة باللوحات فى كل ركن وكل موضع ، وخلفه قيثارة موسيقية . . اندهشت لوجودها .

كان يجمع خصال فنية كثيرة على الرغم من جفاف وجهه وقسماته الجامدة

الحادة التعبير ، كان يكمن وراء هذه الملامح الجافة أصابع فنية رقيقة ومرهفة الحس .. رومانسية بالغة تكمن فى أعماق جوهره .

كلما نظرت إليه وجدته محملقاً فى بشدة .. غضيت بصرى .

ووقعت نظراتى على طاولة مليئة بالأدوية ونظرت نحو هذه الأدوية فى دهشة واستغراب لكثرتها وعدت لجسده وهل مثل هذا الجسد الضعيف وكهولته تلك بمقدرة على تحمل مثل هذه الأدوية ؟؟ أشفقت عليه من المرض .. وجلست صامتة تماماً .

فقال :

— أين أشجان ومحاورتها فى المناقشة .. لماذا أنت هادئة اليوم .. ؟

— لا أريد ازعاجك وأنت مريض .. فلنعفو عنك اليوم .. ونؤجل ذلك حين تشفى .

قال بتأمل :

— أتعرفين يا أشجان . . كم هو جميلا أن تكون فتاة فى صغر عمرك ولديها قدرة على الإبداع والفن .

قلت له متجاهلة مدحه وإعجابه بى : —

— عرفت أن لوحة لك قد بيعت بمائتين جنيه . . فمن هو هذا الشخص الثرى .. المسرف .. المتهور الذى أقدم على دفع هذا الثمن من أجلك ؟ ؟

قال وقد كسى وجهه شىء من الهدوء .

— هذا الثرى المسرف المتهور !

ضحكت قائلة :

— لاشك فى أنه لابد أن يكون هذا الشخص هو أمرأة .

— نعم أمرأة .. ولكنها فتاة صغيرة فى مثل عمرك تقريباً .
تنبهت إليه قائله :
— ومن هى . ؟
أخفق مطرقاً وهو يقول :
— إبنتى . . !
— لما تقولها وأنت حزين .. ثم أين هى الآن .. ؟
— ألا تعرفين إنى منفصل وزوجتى .. وأبنائى يعيشون معها . !
مرت لحظة صمت بيننا وعيناه مركزة النظار على . . أخفيت نظراتى فقال :
— وأنا أعيش هنا مع شقيقتى . . والوحدة تكاد تقتلنى . . لولا الفرشاة التى تخفف على من الوحدة القاسية . . وأكمل حديثه كن يشكو من أشياء لاحصر لها .. وكنت مشدودة الإنتباه لأنه يتحدث عن نفسه وأخذتنى الدهشة وأنا اكتشف كم هو شقى تعيس . . وهذا لم أتوقعه بعد . . وبدد إنتباهى هذا قوله :

— كم تغيرت ملامح وجهك كثيراً . . أتذكرين المناقشه الحادة التى دارت بيننا فى أول لقاء منذ عام تقريباً .
— نعم أذكره . . كان بداية الحديث عن الفرد والمجتمع !
— ونهايته .. !
— كان رأيك فى الحب ، والمرأة . !
— أتذكرين ما قلته ؟
— أجل .. وأعتنقه :

ـــ تحدثنى أنت عن رأيك فى الحب والمرأة .. أريد أن أسمعك .

ـــ أنا لا أختلف معك فى تفسير أى قضية ، ثم أن العصر الحديث قد أوجد منافساً جديداً للحب وهو المال .. فقد يكون من الحماقة أن يضحى الإنسان بمستقبله فى سبيل الحب .. ولكن من أشد وأكثر الحماقة أيضاً أن يضحى دائماً بالحب فى سبيل مستقبله أو نجاحه المادى .. !

سألنى وهو ينظر إلى بإعجاب .

ـــ كيف .. ؟

ـــ فالتضحية من النوع الأول قد تعد لوناً من ألوان البطولة أحياناً ولكن التضحية من النوع الثانى لا تعد بطولة على الإطلاق ومما يدعو إلى السخرية حقا هو أن المجتمع العصرى تغلبت عليه التضحية بالحب وذلك لأنه مجتمع بنى على أساس التزاحم فى سبيل جمع المال .. كما أن التقاليد العتيقة التى شوهت الحب فى نظرنا تعمينا عن النواحى السامية التى ينطوى عليها بوصفه الوسيلة الناجحة الأولى لتبديد الإحساس بالوحدة والوحشة ذلك الإحساس الذى ينتابنا فى كثير من الأوقات ..

قـــال :

ـــ إذا كان الحب لا يبدد الإحساس بالوحدة والوحشة فما هى قيمة الحب فى حياة الإنسان .. ؟

ـــ إن هذه القيمة لو أستهدفت الامتلاك فحسب فهى عبث لا طائل من ورائه .. فإذا أشتدت الأنانية بإنسان فهى لا تطغى على مشاعره فقط بل على

خياله أيضا ، وعندئذ يعيش بجمعه لملذاته ولا يستطيع أن يتصور مبلغ ما يعانيه الآخرون من آلام .

نظر إلى متفحصا ثم قال :

ــ هذا عن الحب الغير حقيقى .. فماذا تقولين الحب الصادق وأين ذهب ؟

ــ لا .. لا يوجد حب صادق .. وحب غير صادق .

أبتسم قائلا :

ــ كيف .. ؟

ــ لأنه طالما هناك إحساس وشعور وانفعال فأنه لابد أن يكون هناك حب .. أما عن كونه صادق أو غير صادق فهذا فى إعتقادى أن مجتمعنا المعاصر بما فيه من صراع وتطاحن هو الذى غير الحقائق .. وقضى على كل معنى جميل حتى لم يعد تربة صالحة لمثل هذا اللون من الحب ..

قاطعنى قائلا :

ــ حديثك منطقى جداً .. لابد إنك أحببت .. ؟

لم أجب .. قال متجاهلا ما سأل :

ــ أى لون تقصديه فى قضية الحب .. ؟

ــ لون المشاركة فى الميول والرغبات وإحساس المحب بأن ذات المحبوب لا تقل فى أهميتها عن ذاته .. ومما يدعو للخذل والأسف حقا أن الصراع الحالى وذلك التنافس طغى على العواطف الإنسانية حتى كادت تختنق وتختفى من الوجود .

— تختفى من الوجود .. كيف ؟ هل يمضى الحب الحقيقى؟ إلى أين يذهب إذا كان موجود داخلنا ؟

— أولا أتفقنا سابقا أنه لا حب حقيقى وغير حقيقى الحب هو حب وما دون ذلك بل ما نسميه نحن حبا هو ليس حب .. هو فى أغلبه شطارة ، تاكتيك .. وتخطيط ومعركة حامية بين إثنين .. إنه مباراة شطرنج وأستعراض مواهب وعضلات .. أنه نوع غريب من التمتع الرخيص .. يتمتع فيه كل فرد بنفسه ، بقوته .. بقدرته ، ببراعته فى التمثيل .. وهو تمتع حقير أنانى .. رخيص .. ينتحل . أطهر صفة فى الوجود وهو الحب ..

— أنت إذن تقدسين الحب .. ولكن ألهذا الحد ؟ !

— نعم ..

— وأين يمضى الحب ؟ .. ؟

— يمضى حيث نقتله نحن . . لان علاقتنا أصبحت مشوهة . . فيدخل كل أثنين فى سباق غير شريف . . غير متكافىء ، فأنه يمضى .. ولقد مضى فعلا مع الايام .. وكلما حاول الظهور سرعان مايموت .. بل يقتله المجتمع اعتباره مولود غير شرعى ثم إننا لانستطيع أن نسمى ذلك الذى نفعله فى الشوارع ونوافذ البيوت والتليفونات حباً .. أنه هروباً . . ومستحيل أن يكون حب .

ظل صامتا . . متأملا ماقلت . . وأكملت ثورتى قائلة :

— كيف تفسر عواطف أمرأة لا يحركها الا أزواج الاخريات أيكون الحب ؟

كم يكون الحب برىء من دم هؤلاء . . ومظلوم معهم .

فالحب لايعرف التمثيل والكذب والخداع والإدعاء . . لانه لايقوى على ذلك .

الحب إحساس داخلى ينمو بطريقة تلقائية بدون قصد أو نية أو أسباب . . من التقاء اثنين .

يبدأ بأحساس فطرى . . بالسرور والفرح .. والسعادة والارتياح لمجرد التلاقى .. بدون الحاجة إلى أسطوانات أومحاضرات أو حفظ قصائد الغرام .

ثم ينمو ، وينمو اذا كانت التربة التى وقع عليها صالحة للزراعة . . وينمو اذا توافرت كل الظروف التى تساعد على نموة .

هو إحساس جاهز فى داخلنا ينمو دائما من الداخل ، بدون مؤثرات بهلوانية من الخارج .. وبدون تمثيل أو ادعاء وكذب .

هو يضيع فقط فى اللحظة التى يبدأ فيها الاثنان يصنعانه صنعاً كما تصنع الأدوية التركيب من أخلاط العواطف والتاكتيكات والمؤثرات .

كان صوتى يخفق تارة بهدوء ويرتفع تارة بعنف . . ولكنه ظل صامتاً يسمعنى بلهفه وبأذن صاغية . . بتركيز واهتمام شديد .. وأكمات حديثى وكأنى أتحدث إلى نفسى .

— يأخذ كل طرف فى التضحية دون أن يعلم إنه يضحى .. يهتم بكل شىء يعذبه ويؤلمه ويفرحه .. أنه يعطى ولا يطلب لأنه يريد أن يرى الطرف الآخر كما هو .. لا أكثر .

سألنى :

— لم تذكرى كلمة واحدة عن الزواج فى الحب ؟

— الزواج فى الحب لايكون هدفاً مقصوداً من البداية وإنما يكون نتيجة .. يتورط فيها الاثنان لفرط ما هما فيه من الحب .. حتى الإخلاص والوفاء لايتم باتفاق وتعاقد .. وانما يتم من تلقاء نفسه .. حينما يحس كل من الطرفين انه ممتلىء بالآخر ولا يجد مكانا لحب ثان .. انه يصحو فجأة فيكتشف إنه مخلص، وأن ذهنه محصور فى شخص واحد .. يدور فى فلكه .. ويسبح فى فكره .

أنتهيت من كل أقوالى .. فقال موجها كلماته إلى جيهان

— مارأيك فى شقيقتك .. عندما تفوق التلميذة الاستاذ .

قلت وأنا أبتسم :

— نعم .. هكذا قال لى دائما .. التلميذة بدون الصغيرة .

فقال بتأمل :

— حقا .. أنت لست صغيرة .. أنا أراك كبيرة .. كبيرة جداً ياأشجان ولكن المؤسف حقا هو انك مازلت صغيرة .

فتحملقت فيه وأنا أنفض شعرى للخلف وتعلونى ابتسامه عريضة .

— لماذا يكون عمرى شىء موسف .. ؟

لم يجب . . ثم حاول أن ينهض من الفراش . . فتحرك بصعوبة شديدة ومدلي يديه لأساعده ، واعتربت أصابعه تتخلل يدى بقسوة . . وحاول النهوض متكأ باحدى ذراعيه على كتفى والآخرى ممسكا بيدى . . وأنحنى على وهو يحاول السير ببطء شديد .

احسست به يحاول أن يضمنى اليه ، وتجاهلت حماقة تفكيرى . . ربما لأنه يثقل حمله على لاكثر . . فلا داعى أن أفسر كل شيء طبيعى بتفسيرات سخيفـــة .

جلس على مقعده المفضل ، وجذب بيديه إحدى لوحاته الصغيرة التى اعدها من أجلى . . قلت :

ــ لم تجب على سؤالى . . ؟ لماذا تكون حداثة عمرى شيء موسف ؟

نظر إلى ولم يجيب .. أرتدى نظـارته وأمسك بالقلم ، وكتب على أسفل اللوحة : إلى (الحبيبة للقلب أشجان) .

وحين مددت يدى لالتقطها وضع اصابعه على يدى قائلا :

ــ أنا لا أستطيع الاجابه على سؤال إجابته لا تخفى عليك .

سحبت يدى برفق ، ونظرت إلى ماكتبـه ، وأبصرت عناى تلك الكلمـة . . أغمضت عيناى واحسست إننى لست بقادرة على النظر اليها مرة أخرى . ، خشيت أن أكون قد أخطأت فى قراءتها ، أزعجتنى جيهان بقولها :

ــ أشجان لقد تأخرنا . ! هيا بنا . .

ضغط على يدى وهو يصافحنى قائلا .

— سأنتظر منك محادثة غداً ، لا تتأخرى على ، أرجوك .

قالت جيهان ونحن فى طريقنا للعودة :

— أرأيت كيف كان يحدق فيك بعينيه ، وأنت تتحدثين ؟ !

كنت غارقة فى افكارى ولم أجب .

— أشجان ماذا بك . ؟ أتظنين إننى كنت طوال الوقت مشغولة بالشرائط لا . . أنا لمحته جيداً وهو يتمكن بالقيام ليضمك إليه . . أشجان ماذا أصابك . . ؟ . . فيما تفكرين ! المسألة واضحة .

لم أجب بكلمة واحدة .

كل شيء يقول إنه (. . .) . ولما لا . . ؟ حداثة عمرى ؟
أم شيخوخته ؟

نفضت شعرى للخلف وكأنى أحاول أن انفض تلك الافكار والهواجس .

* * *

(٢)

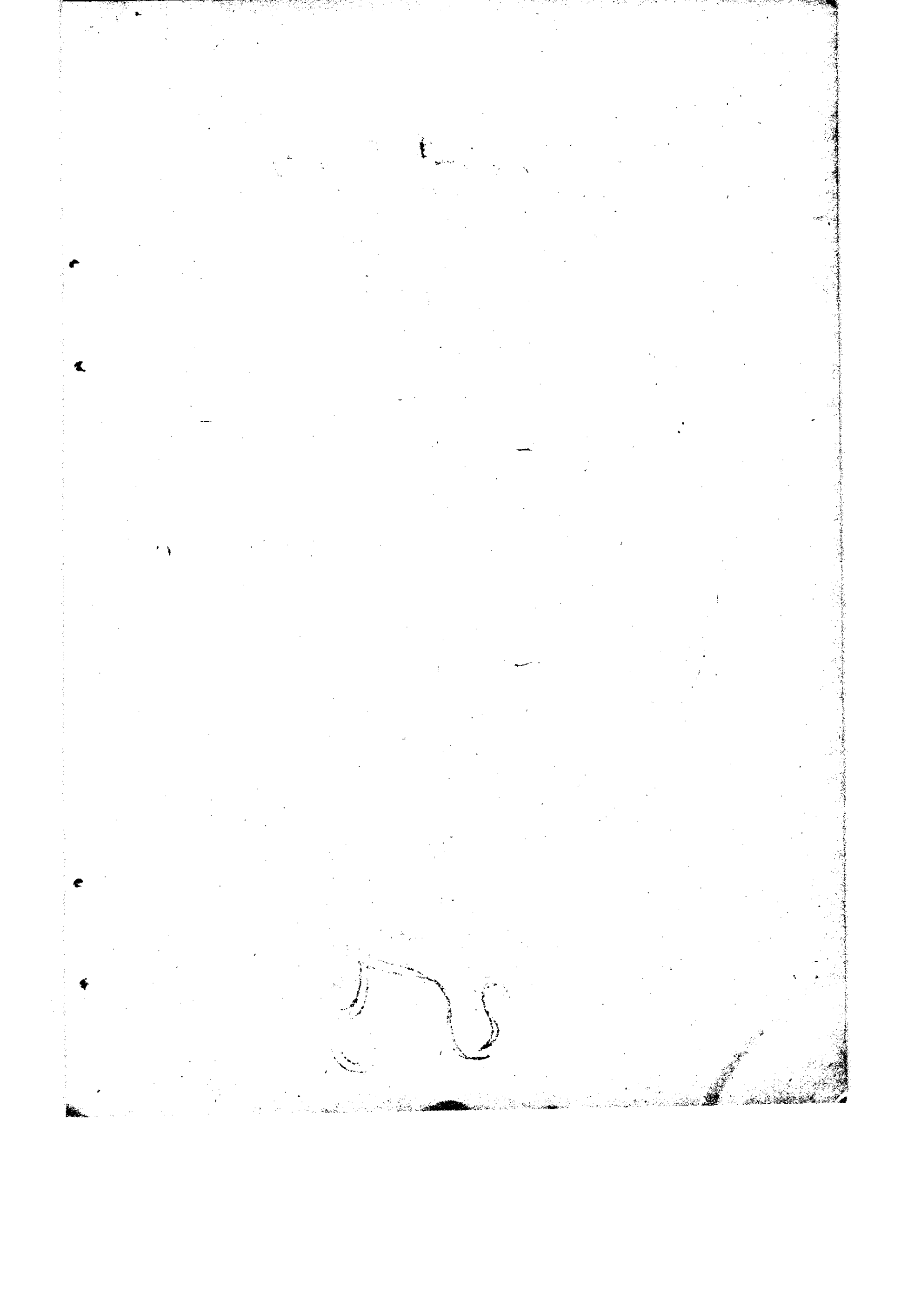
الحب لا يعرف فوارق .

عادل أدهم هذا العقل الكبير . . يحبنى . . أنا الفتاة الصغيرة . . إذا كان هذا ليس له صلة بالواقع فماذا تعنى كلمته (إلى الحبيبة للقلب أشجان) .

وماذا يعنى إنتظاره لمحادثتى . . ؟

وماذا تعنى نظراته لى ؟





أهتمامه . . ؟ وضغطه على يدى ؟ .

كل شيء يقول أنه يحبنى .

أجل هو يحبنى .

أحتوانى بأفكاره ورعايته . . دائما يحاول أن يقتحم القمم والأسوار العالية التى بيننا .

أجل هو يحبنى .

لا شك فى ذلك . . مما أخاف . ؟ أأخشى خداعه ؟ . . هل من الممكن أن يتلاعب كهل مثله بعواطف فتاة مثلى . ؟

مستحيل . . مستحيل أن أتوقع أن مثل هـذا العقل الكبير . والنضوج الراسخ القوى .. مستحيل أن يتمكن بخداع فتاة فى عمر إبنته .

أجل . . محال أن يخدعنى . . لأنه ليس كسائر الرجال .

أياماً وشهوراً وأنا أعيش قصة حب عنيفة من طرف واحد .

لم أتوقع بعد أن يأتى الوقت ليستيقظ الطرف الآخر من سبات الحداثة التى يعيشها مع الوحدة والقسوة والحرمان .

ولكنه لم يعترف بأنه يحبنى . . فلتهدأ حالتى إلى أن يعترف . . أجل سيعترف إنى أتنبأ بذلك .

مر أسبوعاً كاملا .. عابرته .. وعندما أراد رؤيتى . . تدخل الكبرياء وأبى أن يعترف بأنه بشوق إلى . . فزعم أنه يريد رأى فى تصميمه لأحد اللوحات الجديدة .

أبتسمت . . هللت من داخلى ، ذهبت إليه وحين أطرقت قدماى مقتربة من غرفته ، أسرع بالنهوض وأستقبلنى . وحين دخلنا الغرفة ، أغلق خلفى الباب

وهنا أرتعشت يداى ، وأحمرت وجنتاى معبرة عن الخوف الذى أمتلكنى . .
فوضع ذراعاه على كتفى قائلا :

— ماذا بك . ؟

أخفيت بصرى وأنا أجيب :

— لا شىء هناك .

كانت حالته قد تحسنت كثيراً ، وجلس على الفراش وجلست بجانبه فهمس قائلا :

— هل تعرفين ما أود قوله لك ؟ .

قلت وأنا أسحب يدى من بين أصابعه برفق .

— كنت أنتظره ..أياماًوشهوراً وأنا أنتظره ، ولكن الآن ليس لدىأى رغبة لسماعه منك .

قال مقترباً نحوى :

— لأنك خائفة ا أتخافين منى أنا ؟

أسرعت قائلة :

— أنالاأخاف منك .

— فلماذا أرتعشت وتلعثمت عندما أغلقت خلفك الباب .

قلت وأنا أنهض :

— لاشىء . . . أين لوحتك الجديدة ؟ .

تجاهل قولى قائلا :

— دعى هذا الآن . . كيف حالك أنت ؟ .

أنتا بتنى ارتعاشة وانا أجيب :

— بخير . . !

— ماذا بك . . ؟

— لاشيء .

— لماذا أبتعدت عنى ..؟ تعالى . قربى نحوى . . أريد أن أقول لك اشياء كثيرة .

— قل ماعندك وأنا هنا .

— أستحلفك بحياتى ؟

نهضت من فوق مقعدى وجلست على حافة الفراش مبتعدة عنه فقال .

— هل مازالت يداك ترتعشان ؟ .

أضطربت :

— لا . . أبداً . !

قال بنظرة متأملة .

— ما أجملك وأنت خائفة . . !

أبتسمت خجلا . . فوضع يديه على وجنتى .. برفق وحنان . . وقال :

— هل أقول ؟ أم مازلت لاترغبين فى سماع أى شيء منى !

— قل ماشئت قوله .

وهنا أقترب نحوى . . . ووضع رأسى على صدره الحنون ، وأصابعه تتخلل خصلات شعرى برفق ولين قائلا بهمس :

— هل أنت تحبنى . . ؟

أحسست بالأمان وأنا بين يديه . . أمان طالما عشت فيه وحدى . . وها أنا أحيا الوهم الذى عشت فيه أياماً وشهوراً . . ولم أجب بل . . كان ضغطى على صدرة معبراً عن إجابتى .

— ولكنك صغيرة .

مرة أخرى تلعثمت وأضطربت وهو يضمنى بذراعية قائلا :

— ولكنى أحبك كثيراً ياأشجان .

نطق الكلمة التى آنست روحى فى أيام وحدتى . . الكلمة التى بنيت منها قصوراً وعمرت فيها شهوراً . . !

* * *

(٣)

أبداً . . لم أشعر بخوف منه . .

أمتلأ قلبى ثقة عميقة به . . بعد أن ضمد كل جراحى الماضية

وعدت من جديد فرحة . ، منطلقة . ، مشرقة الوجه تكاد الأرض لاتحملنى . . وذات يوم دخلت غرفته . . فقال :

— إن حجرتى الصغيرة ستروق لك . . ولتجلسين أنت أمامى هنا . . وأفضى الى بكل شىء.. بلا اختصار، بلاحزف، أريد أن أعرف عنك كل شىء ؟

ووضع أصابعة على يدى وكأنه يقول انه يفهم .

قصصت عليه مامر بى من احداث . . كل شىء . . واغرورقت عيناى

معبرة عن احزانى الماضية .. فأخرج عادل منديلا من جيبه وأخذ يجفف دموعى برفق وحنان لم أعهده من قبل ..

تعلقت به .. ومما زاد تعلقى به حنانه على واهتمامه الشديد بكل كبيرة وصغيرة تعنينى .. !

ذات مساء .. دخلت غرفته .. وجدته مرتديا ملابسه الرسمية فسألته :

— إلى أين ؟

— أتمنى أن أخرج معك .. ؟ ما رأيك ؟

تحجرت عيناى وأنا أنظر إليه :

فقال بضيق :

— طبعاً أنت تخافين أن يحدق الناس فيك وأنت معى !

— أبداً .. أنا أخاف عليك من عيونهم ، الناس لا تعرفنى أنا .. ولكنها تعرفك أنت جيداً ..

— سنذهب إلى أى مكان .. ليس مزدحم بالناس .

أبتسمت قائلة :

— كما تريد . !

ضمنى إليه برفق قائلا :

— ما أسعدنى الآن .. أشعر بأنى عدت للوراء عشرون عاماً .. هيا بنا .

خرجنا .. وبعد أن سار طريقاً بسيارته غير بعيد .. وجدت وجهه يتجهم عندما لمحنا فتاة فى مقتبل العمر ، يجرى خلفها شاب فى مثل عمرها .. فقلت له :

— أنا حقاً صغيرة العمر .. ولكن لا يعجبنى هؤلاء الشبان الصغار .. أنهم لا يعرفون سوى اللهو .. ولكن أنت .. !

قاطعنى قائلا :

— وها أنا أخرج معك للهو .. هل تتقبلن لهو الستون عاماً .. !

وحول مسارة .. ليوصلنى للبيت :

وقال قبل أن أنزل من السيارة :

— هل من الممكن أن تقضى ما تبقى من عمرك مع كهل مثلى ؟

— وما الحائل فى ذلك . ؟

— الحائل هو إنك مازلت صغيرة ولا تعرفين شىء . !

— بل أعرف كل شىء .. ومستحيل أن يكون فارق العمـــر هو الحائل بينى وبينك ..

— أنت حقاً مازلت صغيرة .. ولكنى أحبك .. أحبك كثيراً

ضغطت على يديه وأنا أهمس قائله :

— يكفينى هذا .. !

— ولكنى أخاف عليك !

— من أى شىء .. ؟

— من حبى لك ..

— من حبك أنت ؟

— نعم لأن الحب قسوة .. وأنت مازلت صغيرة ..

نظرت إليه في شرود .. فقال :

— سأنتظرك يوم الجمعة القادم .

تركني بعد ما ترك علامات استفهام كثيرة داخلي .. !

لماذا لم يحقق رغبته في النزهة معه .. ؟

لماذا تغيرت ملامحه عندما لمح تلك الفتاة والشاب .. ؟

لماذا قال إنه يخاف علي من الحب ؟

ولماذا الحب قسوة .. ؟

لماذا أشياء كثيرة تدور في ذهني .. ؟... ؟

وجاء اليوم الذي حدده .. ولست أدري .. لماذا أرتجف قلبي ! وأنا أرتدي ملابسي على غير العادة .. ؟

مما أخاف ؟ أمن الذهاب إليه .. لم يسيء إلي قط حتى الآن ! فلماذا أخاف منه . ؟ ولكنه قال أن الحب قسوة وهو يخاف علي منه ..

تأخرت وأنا أبدء تائهة من تلك الكلمات .. ودخلت كعادتي غرفته ولكنه كان على غير العادة .. جلست بجانبه ، ويبدو على أنا الأخرى شيء ما على غير ما يرام .

سألني عن هذا الشيء الذي يسري في ملامحي .. لم يكن هناك حزنا .. بل كان سؤالا .. سؤالا وأسئلة .. ارتسمت علامات أستفهامها وحلولها في عينا عادل بنظرة متفحصة .. وقال وهو يقترب مني :

— لقد أحببت كثيراً .. ولكنني لم أتوقع أبداً أنني سأحب فتاة في مثل عمرك .

ولم تجيب هذه الكلمات عـــلى ما يدور فى ذهنى بل زادت من علامات الإستفهام فى رأسى .. كنت خائفة ، مضطربة ، لست أدرى لماذا .. وجه إلى سؤال ويداه تقترب من أنا ملى برفق :

ـــ لماذا أنت خائفة ..

سحبت أصابعى من بين يديه قائلة :

ـــ لست خائفه !

ـــ أنت لست تحبيننى .

ـــ لمـــاذا ..

ـــ لأنك تخافين قربى .. فكيف تقولين إنك على إستعداد للتضحية بكل شىء فى سبيلى .. امكن أن تتزوجنى ؟

ـــ لم اجب ..

ـــ بالطبع .. انت عقلك يأبى ان يتصور إنك تعاشرين كهلا مثلى ..

ـــ اى معاشرة تتحدث عنها .. الوصول إلى الفراش ..

ـــ لا تسميه وصولا .. بل هـــو جزء هاما فى الحب ولكنه ليس هو الحب .

ـــ انا اؤمن بأن الحب شىء وما يمارس شىء آخر ، وانا لست انثى .. ولا اتمنى ان تجعلنى انثى ..

ـــ انا لم اجعلك انثى .. ولكن الله خلقك انثى .

ـــ ولكننى لست انثى . !

ـــ أنت مغرورة .
ـــ ليكن ذلك ..
ـــ انت إذن لا تحبينى ..
ـــ نعم انا لا احبك ، إذا كان هذا هو الحب فأنا لا احبك .. لأنى لم احب الرجل فيك ، بل احببت الفنان الذى استطاع ان يسلب منى وينزع الثقة نزعا . . ولكن مثلك مثل سائر الرجال ..
ـــ وانت الست كبقية الفتيات !
ـــ اجل إننى فتاة ولكننى ، لست كسائر الفتيات ؟
قاطعنى بصوت خفيض حزين هامسا :
ـــ حقا انت لست تحبينى .. انت احببت فرشاتى والوانى ، ولم تحبينى كأنسان له مشاعر وإحساس ، احببت جماد ، لوحات ، وترغبين فى تحويلى لاحدى لوحاتك .. ولكنى انا احببتك بما تتميزين به من حماقة :. احبك فى شتى اوضاعك ، الفنانة المرهفه ، المثقفة ، المتمردة .. المغرورة . . وتحت كل هذه الصفات اضع اسم حبيبتى الصغيرة . . اشجان . . واشجان يطلق على انثى . . فأنت بما تحملين من قوة وعنف (انثى) .
ـــ لست انثى .
ـــ ولست رجلا . . كل شىء فيك يعبر عن الأنوثة عيناك تتحدث ، تشير ، شفتيك ترتعش .. اصابعك ، الأنثى فيك تثور :
قاطعته :
ـــ الانثى لدى ليس لها وجود وخاصة معك انت . . اجل كم تمنيت ان اكون بين ذراعيك ولكن ليس كرجل وامرأة !

— أنا أصدق أقوالك . أنت تبحثين في عن الأب ، عن الحنان لا عن المحب العاشق . . ! أجل ، إني أصدقك .

— إذن أنا لست انثي . . أنا عقل .

— وجسد .

— ولكني .

(قاطعني)

— ولكنك تنكرين أنوثتك ، تهربين من مطمع أنوثتك ، فحاولت أن تتجاهلين ما يصوره لك عقلك بصورة مشوهة ، وتمسكت بالعقل والأفكار فظننت إنك أحببت كهل ليس له شعور . . وعلى الرغم من حماقتك فإنك أثبت وجودك ، على الرغم من حداثه عمرك . . وهذا ما يساعدك أكثر على الغرور . . وحين امتلأ عقلك بي . . خالط ذهنك إن هذا هو الحب الشريف . . لانى كهل . . ولانى بأعتقادك رجلا بلا رغبات وإحساس وعواطف . . وإنك سعيدة بهذا لانك لن تخرجين على قيمك وطباعك وتنحدرين إلى الابتذال . . ولانى أحببتك ظننت إنى سأحبك متجرد من العاطفة . بعقلى مثلك ، أنت لم تعرفيني كانسان له قلب ينبض كما إنك لم تحبي الفنان داخلي . لإنك لو أحببته لأحببت أحساسه وشعرت به كما شعر بك . أنت أحببت تمردي . . لانك متمردة ومن حماقتك إنك متمردة حتى على كونك أنثى . . أحببت لوحاتى لانها ضد الواقع وتلوثه ولانك تعانين من زيف تجربه . . تكرهين الواقع بزيفه . . وتهربين منه . . أحببت جنونى وثورتى . . أجل أنت لا . . ولن تتمنى مطلقاً أن تكونى أمرأتى . . لانى أمامك فرشاة وليس أصابع . . ألوان وليس إحساس .

صمت ونظرت اليه . . لست أدرى ماذا أقول ؟ بعد أن ثار على كل هذه الثورة عاد يقول .

— ظننت إنك تحبينى ، فأنا لا أستطيع أن أعيش بدون حنان أمرأة ، على الرغم من حداثة عمرك وجدتنى مدفوع نحوك وظننت حقا إنك شباب حياتى الذى ضاع بين هذه الجدران . . ظننت إنى من الممكن أن أحملك واطير ولو ، حتى فى الخيال ولكن للأسف نسيت كهولتى ، ونسيت الفن . . ونسيت كل شىء فى سبيل لا شىء ، يالى من أحمق . . معتوه . . هل وصل بى الحد أن أحاول أختلاس صباك ؟

شعرت بأننى قسوت عليه ، فقال قبل أن أتحدث .

أتذكرين يوم قلت أن الحب لا يعرف فوارق ، ولكنك الآن تهاجمين فى شعور المحب ، شعور اللمسة .

ملأنى الصمت بعد أن أحسست أن كل شىء فيه لم يعد يتحرك . . لقد صمت كل ما فيه تماماً .

أقتربت نحوه . . هادئة . . حزينة . . فأمسك يدى وأنحنى يقبلها بهزتنى من الأعماق كلماته . . ما أعذبها من كلمات . . أخذ قلبى يلين كلمة ، تلو الأخرى . . وشعرت إنى لا أستحق هذا الحب الكبير ولست جديرة به . . واغرورقت عيناى بعد أن أحسست أننى قسوت عليه . . ليس بوسعى أن اقسو على إنسان ما .

وأخذ يحدق فى طويلا . . وكانت عيناه لا تعبر عن نظرة رجل . . ولكنها تعبر عن نظرة محب . . إنسان له قلب ينبض لا رجل حيوان .

غريب أمر هذا الرجل . . أنا لا أفهمه .

تارة أشعر بصدقه وأنه إنسان عظيم .. وتارة أخرى أشعر به حيوان .. يدعى الطهارة والشرف .

ومرت لحظة صمت طويلة ثم نهضت وأنا أقول .

ــ هيا ابتسم ..ولو ابتسامتك الساخرة التى أعشقها كثيراً .. أنا لن اتركك إلا إذا ابتسمت .

ــ فلن ابتسم أبداً .

وضعت رأسه على صدرى وأنا أضمه بذراعى قائلة :

ــ لم أتوقع منك كل هذا الحب .

همس قائلا :

ــ هل أنت تحبينى ؟

اضطربت وأنا أبحث عن إجابة فقال :

ــ لا تبحثى عن كلمات . . أعلم إنه ليس بوسعك أن تدعى هذا الادعاء .

قلت وأنا أتأبط حافظتى .

ــ لقد تأخرت .. أرجو أن تهدأ . . وتستريح . . وغداً سنتحدث فى كل شىء .

قال بعصبية وهو ينهض .

ــ أنت إذن لا تحبينى .

ــ غداً سأقول لك .

ولف ذراعاه حولى . .مقشرباً إياى فتقهقرت مسرعاً للخلف وتركنى اخرج.

* * *

عدت بخطوات هادئة .. لست أدرى ما سبب كل ثورته هذه .

لقد أوشك الموقف أن يفلت منى . وأنفعاله هزنى .. وهز فى نفس الوقت الخيوط الدقيقة التى كان ينسجها على مهل .. والحقيقية المعلقة بهذه الخيوط تظهر وتختفى قبل أن تنقطع .

دخلت غرفتى وجلست على المقعد أمام مرآتى .. وأنا أحدق فى كل جزء أرتسم على جسدى .. أدور والتف حول نفسى .. أبحث عن ما يرغب فيه الرجال لست بصارخة الأنوثه .. ولا بفاتنة الجمال .. فماذا بعد ؟ . وابتسمت قائله لنفسى :

نعم أنه لست أنثى .

ولن أكون أنثى يوما ما .. ولكن هل أنا أحبه .. ؟ هل من الممكن أن يأتى الوقت الذى أضحى من أجله بكل شىء ؟

صحوت مبكراً على غير العادة .. وأمسكت فرشاتى .. وأخذت أناملى تضع نقاطاً سوداء على لوحة الطاووس ، حدقت فيما فعلته فرشاتى الحمقاء .. وفجأة دق رنين الهاتف صاخباً :

نهضت ، جذبت المسماع ودخلت فى الشرفة ، سمعت صوته يأتينى بلهفة غريبة .

ــ ظننتك نائمة !

ــ لقد أنتابنى قلق .. فصحوت مبكراً .

ــ لعلك ترسمين .

ــ أجل .. إنى أرسم .

ــ وكيف حالك ؟

— بخير .. وكيف أنت الآن ؟ فأنت بالامس كنت على غير ما يرام .
أنا لم أنم ليلتى هذه .. فأنت كنت قاسيه .

— أنا لست قاسية .. أنا أحبك بما لدى من حب .. وأنت تحبنى بما لديك من حب .. وعلى ما يبدو لى واضحاً أن الرجال لا يحبون إلا بتلك القدرة الرخيصه الى يتمتعون بها .

— أنت مغرورة .. عنيدة .. والعقد النفسية التى سيطرت على وجدانك والعزلة التى تعيشين فيها ، كل هذه جميعاً تحول دون اتصالك بالحياة ، وملأتك مرارة وأنت لا تشعرى .. فأنت تسخرى بالحب لانك لم تحبى .. وأنت لم تحبى لانك تعاليت على الحب ورحت تنقبى فى الكتب عن كل رأى يعزز دعواك قلت وأنا أبتسم :

— هذا هو رأيك فى !

— أنت حمقاء ومغرورة لكنك لست مغرورة إلى هذا الحد .. فأنت فتاة عاطفيه جداً ولكنك تدفنين عاطفتك فى الفرشاة واللوحات .. وتحاولين إخفاء كل رغبة تسرى فى جسدك .. ولكن عيناك دائماً تبوح عما تخفيه من أسرار ، ولكنى أحبك بما تحمل هذه الكلمة من معانى كثيرة .

— أنت تحبنى كأمرأة .. وأنا أحبك كفنان .

إندفع قائلا :

— ماذا تتوقعين منى .. أعصابى احترقت معك .. وأنت دائماً ترسمين .. أنا لست راهباً . رجلا أنا .. يحب بما لديه من إحساس فلا تكونى حمقاء .

— حمقاء أنا .. عنيدة .. مغرورة ، ولكني .

— ولكني لا أستطيع تحمل أكثر من ذلك .. أنا أريد أن أقبلك . أن أتلاشى فيك .. أن .. وأن .. وأن .

أحسست باشمئزاز .. كيف يسمح لنفسه هذا الكهل المعتوه أن ينطق بمثل هذه الأقوال السخيفه .. الرجل الناضج .. أين النضوج وهو يتحدث بلهفه المراهقين .. أين الوقار والرزانة والحكمة .. قلت :

— أنا لن أتركك سوى بعد أن أحاربك .. ولن أحاربك بأسلحتى بل بأسلحتك أنت .. بمبادئك أنت .. بعقائدك أنت .. عقائدك التي أعتنقتها أنا .. وتخليت عنها أنت .

— أنت حمقاء .

— وأنت وجه ذو قناع وأقنعه .. قناع يخفى ورائه وجهاً « مشوهاً » مزيفاً .. لرجل من رجال هذه الغابة .

— أشجان !

قلت بشيء من الأسى .

— حين تعلقت بلوحاتك وفنك .. ظننت أنك تماثلني .. وجه آخر لحياتي .. كنت على ثقة بأن فنك ما هو إلا صورة لحياتك .. لأن الفن مرآة .. ولكن يبدو أن فرشاتك غير صادقة وتأت الآن لتحاول أن تعبث بي . !

— أنت التي سوف تعبثي بي لو ظللت تهذي على هذه الشاكلة .

أنهيت المحادثة التي ثارت لها كل ذرة في أعصابي وجرت لها الدماء في عروقي .. وأنا أسترجع كل كلمة قالها .

* * *

(٥)

يمضى يوماً أثر يوم .

وأنا أبحث عن الحقيقة داخل الأعماق .

الحقيقة التى تلمح وسط الأكاذيب .. وبينما أجلس لأقرأ إحدى المجلات ألمح حواراً مع عادل أدهم .. ولمحت جملة قالها .

(الحب لا .. الرحمة نعم) . وقال عن معنى هذه الجملة :

— أعنى إنه لا يمكن أن يحب رجل أمرأة دون أن يرغبها ولهذا ما تلبث قسمات الحب الرفافة الحنون أن تمازج الدم واللحم والجبلة البشرية وتتحول إلى ريح وإعصار وزوبعة تدفع بالمرأة إلى حضن الرجل حيث ينصهر اللحم والعظم فى أتون من الشهوة العارمة واللذة الوقتية التى ما تكاد تشتعل حتى تنطفىء . . والشهوة فى طبيعتها العنف والعدوان و قسوة . . فالحب يتضمن قسوة خفيه وعدواناً مستتراً . تذكرت يوم إن قال لى أن الحب قسوة .

ترى هل حقاً هو يخاف على ؟ أيخاف على من نفسه ؟

أجل هو يحبنى ولاشك .. وأنا .. أنا التى أرهقته .. مرات ومرات .. نعم كم أنا حمقاء .. وخابرته أقول له .. إننى قرأت ما أعلنه فى المجلة وقال إنه يقصدنى وأنه يرفض الحب الذى يجعله يقسو على .. أحسست أنه يحبنى حبـــاً كبيراً .. وأنتظرنى كعادته . . ذهبت إليه بعد أن تأكدت إنه لن يعبث بى بعد اليوم . .

وأن معتقداتى السخيفة هى التى تجعل الشك يملأنى .. ارتجفت وأنا أجلس بجانبه وأقول له :

— إنى أستطيع الآن أن أقولها لك .. بدون خوف وبلا خجل .. إننى أحبك .. أحبك أكثر من كل شيء ،

إبتسم عادل إبتسامة ملأت وجهه ذو القسمات الجافة وأحتضنى .. كنت هادئة .. ساكنة .. مطمئنة إليه .. لقد عاهدت فيه الحنان .. الخوف على حتى من نفسه .

وفى غير هوادة ضمنى إليه بقسوة غريبة .. لم أثور فى البداية .. ولكن أحسست بقشعريرة تملأنى .. وقبل أن أبتعد عنه .. وأدفعه عنى .. حاول أن ينقض على بوحشية بالغة .

وكان الذهول الذى اكتنفنى جعلنى لا أقوى على دفعه .. ولم يحمانى على دفعه سوى الإشمئزاز الذى ملأنى منه ..

وتساءلت قبل أن أدفعه بيداى .. ترى لو كنت تزوجته .. أوكان حتماً يرغب فى زواجى .. أيكون بهذه الوحشية والقسوة ؟ وقتها سأكتشف إننى لم أحبه لإننى كرهته فى تلك اللحظة .

دفعته بكل قوتى بعد أن أصبحت غير قادة على تحمل هذا الشعور المشمئز الذى اعترانى . وأنفعلت بشدة .. جذبت حافظتى .. وأسرعت .. حاول أن يلحق بى فلم يستطيع .. وخرجت بسرعة من بيته ، ودموعى تتساقط على وجنتى ، وقلبى يدق دقاً دوياً .. وعقلى يعصف ويزمجر بكل معتقداتى الماضية .

وتذكرت تلك اللحظة الماضية التى حاول فيها ضياء أن ينقض على ليفترسنى
كلهم وحوش .. وحوش

* * *

(٦)

من جديد .. اهتززت .. فقدت توازنى ،

أنهارت أمامى العمالقة .

هذه الصدمة أقسى من التى سبقتها .

وتحطمت كل القيم أمام عينى .. وتمزقت الستر الزائفة .. وسقطت الأقنعة عن الوجوه المشوهة .. السيئة المنظر .. !

أسرعت إلى غرفتى ، وأغلقت الباب ، أخذت أمزق كل لوحاته المزيفة .. وأطرقت عيناى إلى الأرض وخلا قلبي من كل ثقة وقلت فى نفسى .. هذا هو الرجل دائماً .. كهل كان أم شاب .

ماذا يا إلهى .. ؟

الرجل العابد .. الكهل الفنان ، هو الآخر يتقبل الشيطان .

ماذا أصابه ؟ بل ماذا دهاه ؟

أأقفرت الحياة من العنصر الطيب ؟ ماذا فعلت ليحاولوا إيذائى ؟

أى جرم ارتكبته فى حق هذا وذاك ؟ ألاننى أحمل لهم حباً ؟

أهذه نتيجة حبى لهم ؟ .. لماذا حاولوا خداعى .. والعبث بى ؟ أى عذر يكفر خطيئتهم ؟ .



وعاد الليل الحزين يخاطبنى بأعذب النغم وأشجاه .

وأخذت رأسى تدور على وسادتى . . وبدأت أصوات الأسى تطارق أسماعى

لقد وصلت إلى شعور يجتاحنى فيه عويل جارف . . لقد أصبحت غرفتى مكاناً يخرس فيه كل ضياء ويهدر كما يفعل البحر فى أثناء زوبعة حينما تلطمه رياح متعارضة . . ونفضت الغطاء من فوق جسدى وذهبت نحو شرفتى لأستمع إلى آذان الفجر . . كم أجملها من لحظات هادئة . . ولكن ما أصخبها دوياً فى قلبى . . الناس كلهم نيام ولم يبق سوى الخاشعين ، سقطت دموعى . . وأنا أناجى الله . .

يا إلهى . . هل أنا مخطئة ؟ هل أنا أثمت لأستحق كل هذا الخداع ؟

إنى أتمسك بك دائما . . !

فهل تدعنى للشيطان ينهل على . . ؟ إنى لا أسألك رد القضاء . ولكن أسألك اللطف فيه . .

أزل ضعفى ، وأقتل هواى . . واكشف عنى كل خـــداع يلحق بى ولا تتركنى وحدى . . . !

أياما تمضى . . وأياما تأتى . . وأنا على تلك الحال . . إلى أن سمعت صوته مرة أخرى محاولا العودة قاطعته . . وقلت :

لتقل لى أن ما حدث هو رغما عنك . . وإنك لم تخطط وتدبر لهذا . . بل كان تدبيراً من القـــدر . . ولتقل لى أيضا تعلمى كيف تكونى فتاة . . أليس كذلك ؟

مضى عادل كما مضى ضياء من قبل . . وأنا كما أنا لم أمض بعد . . !
وليتني مضيت . . !

* * *

(٧)

اشعر أحيانا بأن الحياة مجرد عدو لنا .

عدو هائل . . خصم لعين . . لا يهتم غير إثبات خطأ كل منا فى تصوراته ومعتقداته . . ويريد أن يضع نهاية لكل ما نظنه خلداً .

لا . . ان أترك نفسى للحياة لتدحرجنى معها كالدمية أينما تشاء . . لابد وأن أسير ولن أنتظر حتى أرى خيالى يغدو كسيحا . . غير قادر على الحركة .

قليلة . . قليلة أيام السعادة . . أيامى التى حلقت بها طويلا فى سماء الخيال . . سقطت أمامى صريعة على أرض الواقع . . وأخيراً أيقنت إنه لا وجود للفضيلة فى هذا العالم الذى نعيش فيه . . كنت أظن إننى عقدت هدنه مع الوحدة . . مع الحرمان .

ولكن لا . . لم تعد هناك هدنه . . بل كانت سرابا . . أملاً كسيحا . . لا يقو على السير .

ليتنى لم أفتح قلبى لإنسان . . ليتنى ظللت لا أيام وردية تتأرجح فى حياتى حتى استقرت داخل قلبى ونفسى وجعلتنى أصدق الهدنة . . وأبرم العقد وأنا لاهية . . فرحة . . مستبشرة . . ولكن هأنا أنهى العقد . . عقدى مع هدنة الأيام . . !

أرتميت فى أحضان الفن ، من جديد عائدة اليه دائما ، واكتسحت لوحاتى المعارض ، وسارت درباً من دروب الحزن والشجن ، ودارت الايام وأنا على هذا الحال .

ويوم ، عرفت أن لوحة طاووس الظلام مازال يطلبها كثيراً من الناس ، فعزمت على أستعادة رسمها بالألوان الطبيعيه .

حاولت أن أبتعد عن غرفتى الحزينه ، وخرجت للنادى ، جلست فى موضع أخترته بعيداً عن العيون وأمسكت بالفرشاة ، وأخذت أناملى ترتعش وأنا أستعيد ذكرى هذه اللوحة .. وفجأة وقف خلفى شابا يترقبنى ، أعرفه ، اجل رايته من قبل كان مهذباً فى تعليقه على هذه اللوحة ، وقال انه دائما يجدنى أرسم بعيداً عن الناس ، وإنه متتبع لوحاتى ، ويعرف عنى الكثير ، وحاول معرفتى ، وكلما ذهبت إلى النادى وجدته أمامى .

أعتدت رؤياه ، تبادلنا كثيراً من الآراء والتعليقات ، كنت برأيه يائسه.. حزينة . ، شاحبة .. ألوانى تدل على هذا .. حاول أن يتفهمنى .. أن يتودد إلى .. ولكنى أبداً رفضت .

لا أستطيع تكرار ماحدث لى للمرة الثالثة .. من الممكن أن يخطأ الانسان مرة . . أثنين . . أما للمرة الثالثه فحال .

مستحيل . . أنا لا أتحمل صدمة تقتلعنى من جذورى . . لماذا يحاولون خداعى ؟ انا لا أثق برجل بعد اليوم ، كيف أستعيد ما كان ؟

ألا تمنحنى أيها القدر هدنه أستعيد فيها هدوءى . . أحقق فيها ذاتى بعيداً عن الرجال .

ألا تتركني وشأني . ، مستحيل أن أجيب ولا . . لن أستجيت يوما لضعف قلبي وعواطفي انا اكره الحب لأني اكرة الخداع .

وسط هذه الافكار المتلاطمه حاول رامى أن يقترب منى . . ودائماً يرى نظرة خوف .. نظرة شك فى عينى . . ويرانى أبتعد . . ولكنه لم ييأس . . حاول أن يخرجنى ممـا أنا فيه . . ! . . ويوما قلت له . . إننى لن أذهب للنادى مرة أخرى لانى لا أستيطع أعيش تجربة اعرف نهايتها تماماً . . وماذا له من صفات تميزه عن ضياء أو عادل أدهم كلهم رجال .

المثقف والجاهل . . الشاب والكهل . . الرجل واللا رجل كلهم سواء .

أجل . . لن أسلم بعد اليوم قلبى لا حداهم . . وآثرت البعاد .

يوم . . وأيام . . وأنا أحاول نفض تلك المشاعر . . وخمد هذا اللهب الذى بدأ يشتعل فى قلبى .

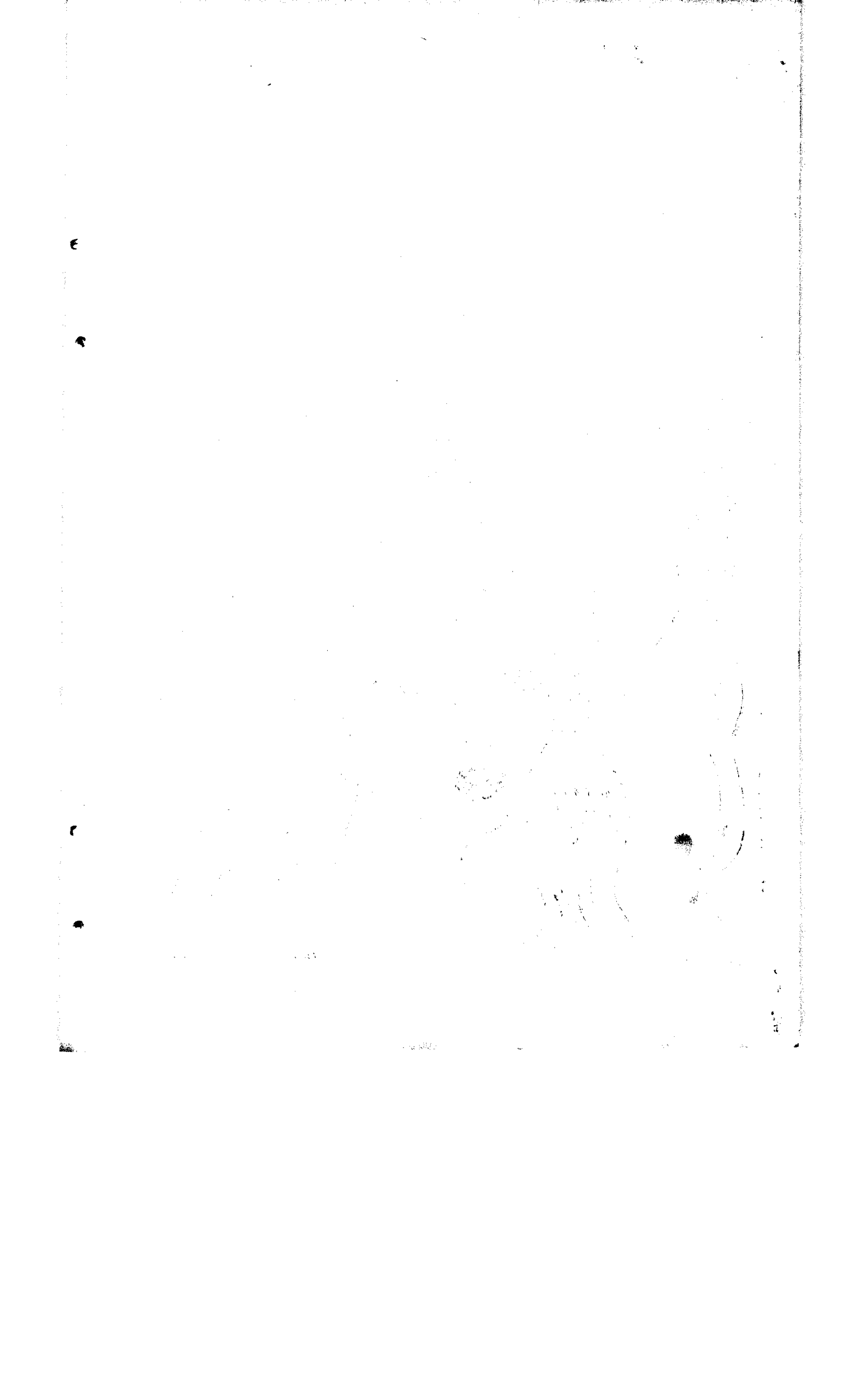
وكم من مرة وأنا أحاول .. وباطلا أحاول .. أغمضت عينى كيلا أرى ذلك الشعاع . . أغلقت أذنى كيلا أسمع هذا النداء .

ولكن عينى ظلت تريان ذلك الشعاع وهما منطبقتـان ، وأذنى أمست تسمعان هذا النداء وهما مغلقتان .

وقلبى يدق . . ينبض بعنف .. يزمجر كالرعود . . يدوى ويعصف بكل القيود ، يحطم الأسوار والقمم العاليه التى أصنعها .

وأغمضت عينى علنى أنام ، ولكن النعاس قد فارق عينى .





ودبت الحيرة فى قسمات الليل .. وعلامات الاستفهام تكثر من حولى .. أقوم وأنهض من الفراش لأجلس متأملة غرفتى .

هذه الغرفة ، ليست أليفة وليست موحشة ؟ ليست واسعة ، وليست ضيقة ، ليست منسقة وليس فيها فوضى .

غريب ، ليس لهذه الغرفة وجود مجرد ، إنما هى إنعكاس لشعورى ، نفسيتى هى التى تعطيها القيمة والحياة .

القيمه ليست فى أثاثها ولا فى تنسيقها ، قيمتها فى نظرتى .. فهى دافئة واسعه عندما اكون سعيدة ، وهى مضطربه عندما اكون ساخطة ، ولكنها اليوم علامة إستفهام . كل شىء فيها علامة أستفهام . ؟ .. ؟ .. ؟

حاولت أن أحول فكرى عن ذلك الموضوع ، فلم أفلح فى ذلك .

لا شعوريا . !

بدأت أتزين وأتجمل كلما حان موعد خروجى للنادى ، وأستطاع رامى أن أن يعيد الابتسامه المشرقه على وجهى من جديد .

وكم دارت من الأيام وأنا معه ، لست أدرى .

أشعر بأسى وأنا أسترجع صوته الحنون وهو يتعجب لأمرى ، أحسست بحزن وأنا أتذكر ندائه الشجى لقلبى الذى بدأ يدق من جديد .

وما إن يحتوينى فراشى بعد عودتى من لقائه حتى أرخى لفكرى العنان منتشيه بذلك السحر الغامض الذى أضفاه رامى على علاقتنا .

ورحت أستعيد كل حركة من حركاته كم هو جذاب ، لطيف ، أرستقراطى

الحركات ، لصوته عذوبه ، لنظراته سحر جميل . . كل شيء فيه يتحرك . . يشعرني بلهفته وحنينه على ،

وكأن الصدق له رنين خاص ، كنت أسمعه ، فهو لم يقل لى أحبك ، ولم يسترسل لى أحدى أسطوانات العشاق ، ولكنه قالها بأهتمامه بى ، بأنشغاله بفكره ، بروحه ، بعينناه ، فالحب الصادق يعجز عن الكلام .

ولم أشك بعد أن عرفته فى انه يحبنى ولكنى عجبت من أمرى .

كيف أحب رامى . ؟ بعدما أحترقت عواطفى من قبل . ؟

ظننت أن الحب سيدعنى وشأنى ولكن الحب والفنان شيئا واحداً ، لا يفترقان أبداً ، ولأن الحب موجود داخلنا فهو دائماً يبحث ، وينقب عن التربة الصالحة لينمو فيها .

ولكن شيئا ما أستوقفنى . ؟ . رامى لايعرف مامضى بى من احداث .

هل بأستطاعتى مواجهته . ؟ هل سيفهمنى أم سيقسو على . ؟ على أى شأن من الاحوال يجب أن أصارحة بكل شيء فالصراحة هى أقصر الطرق وصولا لأى شيء .

أنتظرت ، حين يحدثنى عن الزواج وحينذاك لن أستطيع أن أخفى عليه شيئا مضى بى .

وذات يوم .. بينما كنا نجلس معاً ، أشعر برغبة قويه فى النظر اليه وكأنى أردت أن أشبع نظراتى منه ، وسألته :

ـــ لما لم تسألنى هل لى تجارب سابقة أم لا . ؟

أبتسم بهدوء قائلا :

ـــ أنالاأحب أن أفرض عليك إجابة شيء ربما تشعرين انه خاصاً بك ، أنت وشأنك ، إذا أردت أن تمنحي حتى مشاركتك في الماضي كما سأشاركك المستقبل ، فلا ضرر في ذلك ولكن انا لايهمني ماحدث ، ويهمني فقط إنك معي اليوم ، إنني أتعلق بكل لحظة أراك فيها ولا أود أن أسترجع ذكريات أليمه وتجارب سيئه ظهرت في لوحاتك ، وكل مأريده هو أن أراك دائما مبتسمة ، فلترمي الماضي وعذابه خلف ظهرك ولتبتسمي للمستقبل .

أغرورقت عيناى .. وأنا أخفي بصري عنه ، فوضع يديه على وجنتي قائلا :

ـــ أشجان ، لا أستطيع رؤيه دموعك .

نظرت إليه في شرود ، أنهرت فجأة ،لمعت في عيني دموع خائفة ، أرتعدت شفتاى وأنا أقاوم مقاومة هائله لاتحكم في حركتي بعد أن فقدت السيطرة عليها تماماً .

بدأ كياني الصغير الدقيق يهتز انفعالا نظرت إلى عينيه وقد أتسعت عيناى في نظرة واضحه ، صادقة .. لحظة نادرة في حياة الإنسان ، لحظة وضوح وصدق .

أخذت أقص عليه الاحداث ، بكامل حذافيرها بكل امانة وصدق بلا إختصار ، بلاخوف ، بلا حذف ، بلا بتر وبلا خجل ، فأنا لم آت بإرادتى امراً اخجل منه .

ومرت لحظات صمت بنينا عبرت بيننا كل الحواجز ودمرت كل الجدران التي حاولت أن أضعها أمامي ..

أخذنى رامى بين ذراعيه وهمس . . كنت أتمنى أن أمنحك الكثير ، ان اعرفك قبل أن تدمع عينيك ولكن ما أمتلكه هو قليل .. قليل جداً ياحبيبتى، دائما كنت أراك تهربين منى .. والسبب هو إنك أسأت الاختيار سابقاً .

أشجان أريد أن أعرف قلت هامسة وأنا أشعر براحة عميقة :

ـــ لاتعرف أذن إننى أحبك .

ضمنى اليه قائلا :

ـــ لو تعلمين كم أحبك ، لنسيت كل هذه السخافات الماضية .

* * *

(٨)

وهذا الحب الكبير ، ما فكرت يوما أن أستبدله بشىء آخر من الدنيا .

هـذا الحب ، دفعنى دفعـه قوية للأمام ، علمنى الابتسامة الصافية وأنه مازال حتى اليوم يوجد شيئا أسمه صدق ،

وأطلقت لخيالى العنان لينطلق مرة واحدة معبراً عن الاحلام .

أحلام كل فتاة وبعد أن وجدت من يماثلنى طباعى وقيمى . . مستحيل أن ارفض الزواج .

عندما التقيت به ، لم أصدق إننى من الممكن أن أحبه هـذا القدر الهائل من الحب .

هو الذى كل شىء عنده كان محسوباً بدقة ليست فيه أى إندفاعه ، وأنما

كل كلمة تمر من خلال عقله الواعى المتيقظ .. ولقد كان مثل هذا الأسلوب جديراً بأن يلفتنى .

هو .. رامى ، صاحب الابتسامة المستمره حتى فى أحرج المواقف والاستعداد الغريب لفهم أعدائه وتحليليهم ببرود محلل نفسانى .. وأنا شعلة من الغضب والثورة ،

أجل أحببته ، ولكن ! كيف أنهى حياتى ؟

وأنا فتاة طموح .. تحب الكلمة .. تحلق فى الآفاق وتجتاز الآفاق .. فتاة مرهفة تغرق وجودها فى الفن والنجاح ، وتلتقى برجل .. وأى رجل هو ؟

رجل كرامى .. رجل فارغ كالطموح ، قوى كالنجاح ، قاس كالحرمان ، حنون كزرقة الأفق .

ماذا أفعل ؟ بعد أن تأكدت من صدق عواطفه وحقيقة مشاعرى .. وبدأ صراعى مع نفسى .

الفن أم الرجل .. ؟

هل أحصر طموحى ضمن حدود ذراعين قويتين ؟ هل أستبدل بالآفاق نظرة زرقاء صافيه ؟

كيف أنهى حياتى ؟ الفن أم الحب ؟

وأنسى كل شىء ، الإحبيبا وددت لو أرمى عند قدميه مجداً بنيته خلال سنوات بأعصابى ، وأنسى كل شىء وأتذكر مأساتى الأزلية ..

انا لا أريد أن أتزوج ؟ وإذا كانت هـذه هى القاعدة فى بلدى فسأشذ أنا عنها ،

المجد أم الحب ؟

وأعود بذاكرتى للوراء .. وفى ثوان أستعرض حياتى كلها وأعيد النظر فيها ، وأتساءل هل أستطيع أن أزيح أفكارى عن هذا الذى تشربته أفكارى ؟ هل أستطيع أن انتزع نفسى من عينين حلقت فى سمائهما نفسى ؟

أراه قبالتى ؟ يشرح .. يأمر يتحدث .. يشير .. يتبسم .

كم كنت غبيه .

كيف لم أدرك فى الماضى إننى امرأة ؟ كيف لم ادرك إننى امرأة على الرغم من طموحى المجنون ؟ ، وعلى الرغم من قوتى ومن جبروتى اشعر بأننى امرأة ، كيف لم ادرك ان الفن لايروى الاعماق . ؟ أأظل جامدة فى مكانى ؟

لكن خيالى يطير إلى عالم جديد ، يرمينى بين ذراعيه ، عالم أتمنى لو ابدا فيه من جديد .. اتأمل كل شىء ، الغرفة .. الطاولة ، الفرشاة ، الألوان ، اللوحات ، الكتب ، الاوراق .

كل ماحولى يغيب لأعيش فى لوحة ابتكرها خيالى ولونتها امانى المبكوته ورنين الهاتف يسلخنى من الحلم ويعيدنى إلى الغرفة ، اقترب من المكتب متثاقلة ، ارفع المسماع بحركة آلية وتنتبه اعصابى حين اسمع صوت رامى يحيينى ، والفرح يعصر قلبى .

اعرف مقدماً ماسيقول .. سيطمئن على .. سيسألنى فى تهذيب عن اخبارى ، فهو رغم السخرية يقدرنى كثيراً ، حب كبير يربطنى به .. حتى لم يعد بأمكانى التراجع .. وتتحرك فرشاتى مبتهجة وتنبت الخضرة فى لوحتى ، وكأن الاوراق تحاول اسعادى .



ومن جديد ترشف دموعى ، وتمحو بوجود رامى الأيام السوداء الماضيه .

* * *

(٩)

فى نشوة هذا الفرح وتلك السعادة أمضينا أياماً وشهوراً طويلة ، خالسنا فيها دورة من الزمن ،

وهكذا غالبنى الحظ فأفلت من مخالبه ثم غلبته ، وهأنا أمرح فى كنف زوجى .. زوجى الذى احيانى ، وبدد وحشتى ويأسى .

كانت عيناه تقولان أنه يحب ، فنظره المحب لاتخطئها العين ، إنها نظرة قريره هادئه ، وهناؤها آت من هناك ، من الأعماق ، نظرة تمسح أحداق العيون بالفرح ، ووجه مشرق دائماً .

كم اسعدتنى سعادته ، عيناه تومض ومضاً خفيفاً ولكنه دائم كومض النجوم .. تلك النظرة التى تحيل العينين إلى نبعيين دائمين ، يرويان ملامح الوجه كله بتلك الرضا العذب . . ويمسحه من الحلم لا يختلف بين النهار والليل .

هذه النظرة ، تبقى دائما رغم تغير الظروف ، إنها تغسل الاحزان والمتاعب والهموم وتتجاوزها أحيانا وكأنها لا تراها ، نظرة حب تقفز فوق المصاعب كعصفور يتخطى الأعشاب .

مرعاماً كاملا ، وعين رامى مليئه بالحياة والحب ، ولكن : شيئاً ما كان يستوقفنى فى أدق اللحظات .

شيئاً ما كان يقول لى دائما ، مكانك أيتها الفتاة الحمقاء ، أأنا من البلاهة لأصدق كل هذه السعادة .

شيئاً ما أسمه القدر .. قدر لعين ، عرف كيف يلعب ويعبث بشعورى .

قدر ذبحنى .. مرات ومرات وهو يحطم أعصابى ، قتلنى ، دمرنى ، وهاهو الآن ، يخيفنى .. بعد أن أصابته غفله .

تركنى لأفلت منه وارتمى فى احضان السعادة ، سعادة أختلسها فى دورة من الزمن .

أبداً لم أحاول أن أستسلم لمثل هذا الوهم المريض ، الشبح الذى لا يلاحقنى إلا فى أدق لحظات السعادة .

وكأنه يذكرنى بذاته ، إنه مازال موجود ، ماذا يعنى بسخريته تلك ، ؟

مستحيل أن أفكر فى هذه الخيالات السخيفة وأعكر صفو اللحظات التى أعيش فيها كل عمرى .

لحظات ارمى ورائها الماضى بجراحه ، والمستقبل وما يخبئه لى المجهول .

ولأعيش اليوم ، انا ورامى ..أعيش اللحظةولأفنى روحى وجسدى فيها ، وكأنى أقول له ، لاحياة لى بعدك .

كلما التفت ذراعاه حولى ، شعر بخوفى ، واحيانا كان يخالجنى الشعور بأن شيء ما سيأخذه من بين ذراعى فأضمه بشدة ، أشعر بقلبه ينبض ويعلو يتحدى الزمن .

احس بها قوية امام العواصف ، صلبه ، لن تخفق امام غدر القدر وحماقته .

لم اشعر يوماً وانا بين ذراعية بأنه رجل وانا انثى .

ابداً ، بل اشعر بأصابعه وهى ترتجف لتستشعر وجودى بين يديه لا اصابع

متلهفة لجسد امراه ، اشعر به و كل جزء فى جسده ينبض بالحب والشوق ،
إلى ان يتلاشى كل منا في وجود الآخر ، وكما تلاقت افكارنا وعقائدنا فلتتلاقى اجسادنا ، ليصبح هو انا وانا هو ، ولا يستطيع مخلوق على وجه هذه الارض ان يفرق بيننا .

وظل هذا الشبح السخيف يطاردنى ، ! ماذا أصابك ايها القدر المعتوه ، ؟؟ هل تخبىء لى شيء ما تحت سخريتك منى ؟ فليكن ذلك .

انا لست من البلاهة لاستجيب إلى سخريتك وعبثك لاشوه اجمل لحظات عمرى ، فلتكف ايها الأحمق ، المعتوه عن تلك السخافات .

ولم يتركنى وشانى .. ومايختفى الاسرعان مايعود الى ساخراً ،

وحان موعدى معه .

لأعلم إننى غرة ، بلهاء ، ظننت إنه تركنى وشأنى .

وجاء ليحملق فى بأعين مستديرة ويطبق على عنقى بأظافره الحادة المدببة ،

مؤكداً لى ان الاوهام ماهى الإحقائق ، حقائق مستترة خلف ستر الحياة الزائفة .. مختبئه وراء المجهول والمستقبل .

عاماً مضى والسعادة ترفرف من حولنا فى كل شيء وآن عيد زواجنا الاول

استيقظت مبكراً لأعد للحفل ، وابى رامى ان يعطل عمله .

لأنه يحترم العمل كما يحترم حبنا ، تركته كما يشاء ، واخذت اعد واجهز للحفل .

وتمر ساعة اثر ساعة ، ورامى لم يعد ، اخذنى القلق عليه ، خابرت عمله

أجده . بل أنهم يقولون إنه لم يذهب للعمل اليوم .. أخذتني الدهشة جننت .
أين سيذهب ؟ ألا يخابرني حتى الآن ؟

وكاد الخوف عليه يبتلعني .. وفجأة دق رنين الباب ليزف إلى هذا الخبر :

— زوجة المهندس رامى ؟

— أجل .. أنا زوجته .. أين هو .. ؟

— لقد أصيبت فى حادث ونقل بمستشفى المعادى .

أسرعت متوجهة للمستشفى ودموعى تنسال فى غزارة .. وحين اقتحمت غرفته .. صرخت عندما رأيت أقطاع الشاش تغطى جسده كله .. حالته سيئة .. ذرفت أهدابى وانفتحت أجفانى .. وطفقت عيناى السوداء تحدقان إلى الفضاء الحالك فى شبه حيرة يخالطها الذهول .

خيل لى أن الناس حولى تتراقص كالأشباح .. فجعلت أنظر حتى أستشف الوجوه والقامات غائمة بعيدة كأنها تسبح خلف ضباب .

وقفت مذعورة وسط الغرفة أجيل النظر فى أهـــل رامى وأصدقائه ، وارتعشت .. عندئذ وثب الطبيب ومد يده وشرع يجذبنى ببطء فصرخت من أعماق قلبي وأنا أرى رامى يفتح عينيه .

أرسلت صيحة مدوية وأنهمرت من عيناى الدموع ولبثت واقفه أحدق النظر فى رامى وأنا مسلوبة الحول . . طائرة اللب تكاد الحيرة تصرعنى .

وتلفت حولى كمن يفتقد شيئاً .وما أن أربد وجهى وغام بصرى وصحت فى صوت ممزق :

— رامى ماذا به . ؟ ما أصابه .. ؟ هل حقاً هـــذا الملقى على الفراش هو رامى ؟ .. رامى زوجى أنا ؟

اقترب نحوى الطبيب قائلا :

— لا ترهقينه بأقوالك تلك ، يجب أن تخرجى من الغرفة :

خرجت ولـكن ما أن تمالـكت أعصابى حتى عدت سريعاً إليه .

أمسكت يد رامى المربوطة بالشاش وهمست :

— رامى .. ما أصابك .. ؟

قال بنبرات حزينة وصوته يـكاد لا يسمع :

— ليتنى ماخرجت اليوم ماكان هذا حدث .. ولـكنه القدر .

— إنك لسوف تشفى يا رامى .. من أجلى أنا ستعيش .

— لا أظن يا أشجان ، ليس فى جسدى موضع إلا وقد اصابه جرح .. كانت صدمة العربة بى شديدة .

— لا تقل ذلك يا رامى .. أنت لابد وأن تعيش يا رامى . !

— يبدو أن القدر منحنى أكثر مما أستحق .. ولذلك .

قاطعتـه :

— لا يا رامى .. لا تهذى بهذه الشاكلة .. !

وكان الأمر بالخروج من غرفته لأنه يجب أن ينام ويستريح .. ولا شعوريا ركعت تحت قدمى الطبيب فى غير وعى وإدراك قائلة له :

— أتوسل إليك ، رامى يجب أن يعيش ، أنا ليس لى أحداً سواه فهو كل شىء لى فى هذه الحياه .

أقامنى الطبيب من ركوعى رابطاً على كتفى قائلا :

— ليكن إيمانك بالله أقوى من ذلك يا ابنتى ، نحن نفعل ما فى وسعنا والباقى على الله .

أخذت صيحات دموعى تتنهد فى آسى والآم ، وحان آذان الفجر فتحت نافذة الغرفة . . أخذت أناجى الله بصوت يتخلله البكاء وراحت دموعى ترسل دعوات قلبى وترجو الله أن يشفى رامى .

ويأتى الصباح ، وقبل أن تفتح عينا رامى لتبحث عنى ، ينطق قلبه بأسمى فيجدنى بجانبه .. أرتمى فى أحضانه ويغلبنى البكاء على صدره الجريح ، فأخشى بذلك أن أسبب له ألماً فيقول هامساً :

— لمساتك ربما توقف نزيف قلبى ، النزيف الذى لا يستطيع أى طبيب فى العالم أن يوقفه ، نزيف حبى لك .

أحتضنته بشدة .. فقال :

— سوف أموت يا أشجان ، كانت كل آمالى أن أسعدك .. أن أعوض لك تلك الأيام المريرة التى قضيتها فى حياتك الماضية . . ولكنه ليس شأنى ، بل إنه شأن القدر . . !

— كفى يا رامى ؛ أرجوك أن تصمت ، مستحيل أن تموت ، ماذا أفعل بعدك ، مستحيل أن تتركنى وتمضى .. !

— أشجان . . ألم نتعاهد بأنه لا مكان للدموع بيننا . . أنا لا أقوى على رؤية دموعك يا أشجان .. لاتبك ياحبيبتى . . !

ألمه الجروح بشدة . . فتأوى قائلا :

ـــ سأنتهى يا أشجان ، لا ريب فى ذلك ، سأنتهى . ؟

ـــ رامى .. كفاك هزيان وسخابة ، أصمت يا رامى . ؟

ـــ لقد ولدت يوم عرفتك ، وسأموت وأنا بين ذراعيك . . ما أسعدنى حظاً فى هذه الحياة . . !

ـــ أرجوك يا رامى .. إنك تمزقنى . يجب أن تصمت . !

ـــ دعينى أقول ما أشاء يا أشجان .

أحتضنته بذراعى وكل شىء فى جسدى قد أصابه ارتعاشة ، وسالت دموعى وتساقطت قطراتها على حسدة فقال :

ـــ عاماً كاملا قضيناه ولم .

ولم يتم جملته تلك .. !

وفجأة . . . !

تحجرت عينا رامى ولم يعد يتحرك .

إنى لا أصدق . . !

لقد تصاعدت روحه الطاهرة النقية ومتى .. ؟ أبين ذراعى ؟

وفى أحضانى . . ؟

أخذت ألتف حول الفراش ، وكما تمضى الطيور شادية بصوتها الباكى وقد جعلت من نفسها فى الهواء صفاً طويلا ، هـــكذا رأيت أشباحاً تأتى وهى تطلق صرخاتها . . !

ـــ رامى .. هل حقاً أنت مت .. ؟

أخذك من بين ذراعى القدر ..

أقترب منه . . أحبنى يا رامى . . إلى من تركتنى . ؟ مستحيل أن تمضى وتتركنى . .

سأمضى إلى حيث تمضى . رامى لماذا لم تجب ؟

أضع يدى على صدره فى جنون ، ماذا أصابك ؟ فمازلت أسمع دقات قلبك ، أجل .. إنى أسمعها .. فأنت مازلت حى .

وتعلو صرخاتى .. مازلت حى .. مازلت حى وأخذتنى حالة من الجنون .

لماذا تبكون .. ؟ رامى لم يمت . رامى كان يحدثنى منذ لحظات .

ولم أتمالك نفسى وأنا أقترب من فراشه أقبله ، أخذت أقبل فيه كل موضع حتى أغتسل بقطرات دموعى.. هانت الدنيا من أجلك يا رامى ..

لا أفهم من العالم إلا معنى واحداً (الضياع) كان هو الأمس واليوم والغد الثلاثة كانوا راحة معك ، ماذا تبقى الآن ؟ .

لم أعد اريد شيئاً .. بل اريد جداراً اتكىء عليها . . لماذا لم يستجيب الله دعائى .. ؟ لماذا ترغب الحياه فى عذابى ؟ ..

ويخرج جثمان رامى من البيت.. ويخرج معه قلبى إلى الابد ، (إنى انتظرك يا رامى) ، فى كل يوم .. ستأتى إلى ، اليس كذلك ؟

سأنتظرك يا رامى .. وإنك لعائد إلى .. فى كل لحظة ستكون معى . .

صرخت .. إلى اين انت ماضى الآن؟ لقد تعاهدنا الا نفترق . . فلماذ إذن تتركنى ؟

انطق ايها القدر إنك فرقتنا . . هيهات لك أيها المعتوه . . رامى ما زال معى .. ولن يتخلى عنى . . واقع على الارض ، ولا اشعر بشىء .



ويمضى رامى ، يمضى إلى حيث لا يجب ان يمضى ، وتمضى الابتسامة المشرفة إلى حيث يرقد رامى ،

تتعاقب الأيام والليالى ، وعدت إلى مرسمى ، طافت بى الذكريات الجميلة .

وصوته الحى الذى مازالت أسمعه كل لحظه ، وكلما جلست مكاناً تذكرته معى .

هنا هو كل شيء حولى ، وأنظر حولى كالخائفة المذعورة .

ثم مضيت أثوب إلى رشدى فى هدوء نسبى وأدرك هول الخطب الذى نزل بى .. فغاص بى حنين موجع ، ومزغت يدى إلى خزانه الذكريات ، فأستخرجت كل ماتبقى فيها الأوهى لوحة ، (طاووس الظلام) .

يسلبنى الفكر ، لماذ يعذبنى الله ؟ كنت راضية بعذابى قبل أن يأتى رامى ؟. ولكن القدر ، القدر الظالم لم يكفيه مافعله بى ماضياً .

والسعادة الوهميه التى عشت فيها أياماً وشهوراً .

أنا ارتضى الوهم على الحقيقة المفزعة ، أجل ، فما من بأس أن يتمتع الأعمى بسعادة وهمية على شرط أن يواصل عماه .. أما إذا رد إليه البصر ورأى سعادته سراباً فهل يجنى من ذكريات سعادته إلا ندماً مضاعفه وهما مقيماً . ؟

ثم لماذا ؟ لماذا رمى هو الوحيد الذى يموت ؟ لماذا اختاره القدر من بين هؤلاء الناس ؟

لقد مات رامى وهو مازال لم يتم السادسة والعشرين من عمره ، هل سأتحمل أيامى بعدك يارامى ؟

إنى أطعن فى القدر ، وفى الحياة ، الحياة التى ماهى الإخصم لعين ، يتربص لنا وهاهى نجحت وأخذت رامى من بين ذراعى . !

وتدوى ضحكات رامى بأذنى ، وتتخلل ذكرياتة الحلوه دموعى الحزينة الأليمة ، وأضطرمت لوعتى ، ولم أجد راحه لقلبى الجريح ، ومتنفساً لأشجانى الحائرة إلا فى فنى .

فنى الذى لمحت فيه شجن العذاب والقسوة ، ولم يسلبنى النجاح ذكرى رامى ،

صوته مازال يؤنسنى فى كل لحظه .

أبداً ، لن أنساه ، فصوته الشجى مازال يطرق مسمعى ، وحبه الندى مازال يسرى فى دمى ، ولمساته مازالت تخترق يدى .

نعم إنه مازال يحيا معى ، لم يفترق عنى سوى جده ، ولكن روحه ، دائما هائمة حولى ، تحدثنى واحدثها . . ورسائله الطروب بالغرام معى ، ما أحلى عيشى فى ظل هذه الذكريات الجميلة . . ذكريات حبى الكبير .

ذكريات أسعد أيام حياتى . . ذكريات عاماً كاملا . . عاماً واحداً احتوى عمرى كله .

* * *

(١٠)

حكمة الخالق

رءوف بعباده . . فكل شىء يبدأ صغيراً ثم يكبر تدريجياً .

إلا الحزن . . فأنه الشيء الوحيد فى هذه الحياة الذى يبدأ كبيراً ثم يصغر وللخالق حكمة فى ذلك . . فهو اللطيف بعبادة .

أصبحت أقضى أوقاتى فى بيتى ، أستعيد فيها ذكرى حبنا . . وتظل عيناى مفتوحتين طوال الليل لا يتنظر ان إلى شيء سوى المأساة التى آرها فى ظلام الغرفة .

وصمت كل ما فى تماماً . . توقفت كل حواس فجأة ، وكأن النبض قد فارقها . . تحجرت عيناى ولم أفكر فى شيء .

وتمر فحظات أحاول فيها تهدئه مشاعرى حتى أرضى أخيراً عما أنا فيه ، ولم أنتبه إلا على مجيىء الصبح الضارب على بأسئلته القاسية .

إلى متى سأظل هكذا . ؟

وأحتدم الصراع قلبى وأرهقنى . . وكان صراعاً قاسياً مريراً عجيباً ، لأنه كان صراع من أجل الحياة .

وعاد المرض يساورنى من جديد .. لزمت دارى بعزلتى ، وطفقت فى هدأة العزلة وعلى ضوئها الغامر أفكر وأتأمل وأتردى .

أحسست أن العزلة لم تبدلنى . . و أن الزمن وقد غدر بى ، إنى مازلت أحب . . رامى أحسست إنى أعيش فى محراب العشق .

وغشى الظلام بصرى وكدت أزنح واسقط ولكنى تمالكت جهدى ومكثت فترة طويلة ، أنظر لبعض اللوحات .

وتعود ذاكرتي للوراء لأستمع إلى تعليقات رامي التي كان دائماً يلاحقني بها في كل لوحة .

أصبح طيف رامي لايفارقني لحظه .

ولم أتردد . . أوصدت على نفسي باب غرفتي وأستلقيت على الفراش . . ويتجه بصري إلى صورة رامي التي كانت مثبته على الحائط أمامي ثم مددت يدي إلى صورته التي وضعتها تحت وسادتي ، تتحسسها يدي .

الصورة التي أبى القدر الإ أن يمنحني مرة واحدة قسطاً وافياً من السعادة،

أخذت أقبل صورته حتى تبللت بدموع عيناى ،

هذه صورته ، تطل علي من عالم الذكريات ،

ولقد ثبت عيني الملتهبتين على الوجه المحبوب طويلا حتى لم أعد أر شيئا سواه .

كبرت قسماته في عيني حتى خلتني روحاً صغيرة تعيش في أحضانه .

وأشتد مايحيط بي من صمت فيهأ لي ان هذا الفم المطبق سيفتر باسماً ويسمعني من عذب الحديث ما العهد به غير بعيد .

ان الصورة لشيء عجيب . . !

كيف غابت عني هذه الحقيقة ؟ هذا زوجي بجسده وروحه .

هذا زوجي بعينه وانفه وفمه ، وهذه يداه التي حملتني الى السعادة وبها . . كيف اقتنع بانه قد رحل عن الدنيا حقاً ؟ اجل . . ان الصورة شيء عجيب ،



يبدو لى الآن أن كل شيء عجيب فى هذه الدنيا .

كانت هذه الصورة معلقه فى كل غرفة وتحت وسادتى بحيث تراها عينى فى كل حين .

بيد الآن أنى أراها الآن شيئا جديداً أطالع فى وجهة حياة عميقة ، كأن نفحة من الروح الطليق قد أستسكنت به . . وأرى فى هاتين العينين نظرة باسمة تبعث الحياة .

أن هذه الصورة حيه فلا ريب . . ولن أسترد بصرى منها ولو جننت .

ملكتنى رغبة قوية فى تخيل حياة صاحبها فى جميع أطواره . . من المهد إلى اللحد ، وتسيل دموعى .

أخذت أتذكره فى كل موضع ، وفى كل ركن من أركان البيت . وضحكت بسخرية .

عاماً مضى حتى أخذك القدر منى وخطفك الموت وأنت فى صباك .

مع رأمى كان اليوم يسير بسرعة وكأنه على عجل . لماذا الآن يطول يومى . ؟ تتعاقب الايام والليالى الطويلة . . وأعتصرت الاحزان قلبى . . وسخط على الحياة بعد فراق رامى .

ومن ثورتى أبيت ألا أخرج لها مرة أخرى . . وأصررت أن أسبح فى دنيا من الخيال .

ماذا أصابنى بعدك يا رامى ؟ بل ماذا دهانى . ؟

كان المطر يهطل . . والريح تدوى . . وغيوم السماء تتكاثف تارة وتومض أخرى . . فتلقى الرعب فى النفس . . وتدفع السابلة إلى الفرار .

وشعرت أن بدني يرتجف في أحشاء الظلام الداكن ، وكيف لا يمتلكني هذه الشعور وقد أنطفأت شعلة حياتي بموت رامى . ؟

وخيم على صمت رهيب لم تعكره غير جلجلة الرعد وخشخشخة المطر ، وأنا اضرب النوافذ والشرفات واتساقط فى عنف على الارض .

أحسست إنى وحيدة فى هذا العالم الثائر المدلهم وأختلجت إختلاجاً عنيفاً ، ولكن الذكرى وحدها هى التى كانت تسلبنى هذا الشعور المرير .

يوماً وأياماً . . شهراً وشهوراً . . عاماً وأعواماً مضت . . وأنا أردد دائماً ليتنى ما عرفت الحب .

ليتنى كنت جماداً لا يشعر ، ليتنى كنت أى شىء آخر دون الإنسان .

لأن الإنسان وإن كان يمتلك الارادة فى شتى الأمور والمسائل إلا أنه هناك أشياء لا إرادة للانسان فيها .

مثل الميلاد والموت . وبين الميلاد والموت . . يوجد الحب .

ربما كانت نقمتى وثورتى على الحب من الخداع . . وغدر الإنسان الإنسان ولكن عندما يكون الإنسان صادقاً فلا يلهو ويعبث به سوى القدر . . وكأنه دميه فى يديه ، حتى يسقط صريعاً للحب والحرمان .

اليوم أنا لا أردد هذا القول .

(ليتنى ما عرفت الحب) :

لأنى أحببت فى رامى الصدق ، وإن كان القدر قد أخذه منى . فأنا ما زلت أذكره ، ولا أستطيع نسيان لحظه واحدة من لحظات الصدق التى عشتها معه .



فى عام واحد . . أمضيت عمرى كله . . عاماً لن تستطيع أو تقوى الحياة أن تمحو تفاصيله التى عشت فيها ومازلت أحيا على ذكراها .

ولن يستطيع القدر أن يستغفر لى فعلته هذه . . لن يستطيع أن يكفر عن خطيئته رامى مازال حى . . فى أعماق . . فى وجودى ولن يموت أبداً . . إلا عندما تنتهى حياتى من فوق هذه الأرض .

أنا أتحداك أيها القدر الأحمق أن تسلبنى من هذا الحب الكبير . . أبداً لن أتنازل عن رامى . . فمازلت أسمع دقات قلبه . . جسده مازال ينبض يرتعش فى أعماق .

وهذا الحب الكبير الذى أستطاع أن يمحو الايام السوداء الماضية . . لن ارضى بديلا عنه يوما ما .

ولن يستطيع الزمن أن يطوى أوراق رامى الصافية .

لقد أصبح كل شىء حولى غامض . . مقرور . . تكسوه ظلال السحب الكثيفة فى تلك الايام .

يكتفى أن تختفى السماء خلف السحاب ، وأن يغشى العالم ذلك الظلام الخفيف المتمدد . . وأن تتساقط أوراق الشجر .

لم أكن أفهم ما حدث تماماً . . ومازلت أجهله . . ولكنه كان حقيقياً ، كما لم تكن ثمة أشياء كثيرة فى حياتى حقيقية :

ويوم أثر يوم أصبح ذلك الشىء المبهم فى حياتى الذى لا أستطيع حتى الآن أن أمسك به فى يدى الحقيقة الوحيدة التى تملأ كل حياتى . . تملؤها بالمرارة والأسى .

حقيقة تثقل قلبي بالألم ولا تزال كامنة في أعماق نفسي .

وجاء الشتاء . . بي ضعف شديد إزاء شتاء ؟

أحبه بقدر ما أخافه . . تجيء فيه لحظة لا تنذر بقدومها . تعيدني إلى حياة لا أستطيع أنساها ما حييت .

والغريب إنني أنا التي أصر على أن أذكر كل هذه التفاصيل التي تبدو لي الآن كل معنى جميل ومؤلمة أعيش عليها .

وأحسست بحزن لدى طعاناتي الدائمة على القدر .

أستغفر الله . . وكان بي ظمأ شديد للعبادة . . وأوصدت على نفسي كل الابواب . . وأغلقت كل المنافذ .

وصمت كل ما في تماماً في ظل رحاب من العبادة والخشوع لله .

وبعد أن أسدلت الستار على مسرح حياتي . . يجب أن التق بعالم الخلود وطريق اللانهاية .

لقد أنتهت طاووس الظلام بموت رامي ولكن رامي لم يكن في حياتي مجرد ذكرى . بل هو كما كان من قبل .

هو حياتي كلها . . وصبح جديد ويوم جديد ولم يعد شيء من جديد . . وأنا أنا . . أيضاً لست بشيء من جديد .

ولقد أسدلت الستار على مسرح حياتي . . أسدلت الستار على صوتي الباكي خاضعة لحكم الله في خشوع تام . . أسجد له آمنة مطمئنة بأن حبنا لم ينته بعد حبنا مازال حي في أعماقي . . ولن يموت أبداً .

ولأكتب إليه هو . . إلى رامي .



إلى من كان وحياتى شيئاً واحداً .

إلى من أنتهت حياته من فوق هذه الأرض التى نعيشها ولكنها لا تزال حية كامنة فى أعماق حياتى .

لا أكاد أذكر شيئاً من حياتى حتى يتراءى لى وجهه الجميل الحنون .

فهو دائما وراء آمالى والآمى .

وراء حبى الكبير الذى مازالت أحمله له .

أسعدنى فوق ما أطمع .. وأحيانى فوق ما أتخيل .

أنه حياتى كلها .

فلا أعترف إنى أكتب لا ذكره هو .

ولاستعيد حياته هو .

إليك .. أنت .. أنت يارامى .

* * *

(تمـــت بحمد الله)

بقلم
أميمة خفاجى

مطبعة قاصد خير
٢٥ كامل صدقي (الفجالة سابقا)

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٤٢٦ لسنة ١٩٨٠